مجلـــة كليـــة التربيـــة
العـــــدد الثالث والثلاثون
تشرين الثاني / ٢٠١٨

تقديس المياه

عند العرب قبل الإسلام

أ.د. سعد عبود سمار

جامعة واسط / كلية التربية

الخلاصة

يُسلط البحث الضوء على تقدّيس المياه عند العرب قبل الإسلام، فيُجذر إلى هذه الظاهرة في حضارات الشرق الأدنى القديم، وانعكاسات هذا التأثير في معتقدات العرب القديمة. وسنستعرض في هذا البحث أيضاً: آلهة المياه عند العرب قبل الإسلام، وشواهد تعضد فكرة تقديس المياه، منها: نصب الآلهة عند منابع المياه؛ فهي رمزاً للطهارة، والنحر عند موارد المياه، لكونها مسكونة من قوى خفية، وطقوس الاستسقاء (طلب المطر)، والروايات الأسطورية التي رافقت حفر بعض الآبار واقتراها بأجداد مُقدّسين أضفت عليها القدسية، ويركز البحث على أن المياه أصل الكون، لأنَّها أصل الخلق، وسر ديمومته، ومثلما هي الأصل فهي منتهاه.

الكلمات المفتاحية: المقدس، المياه، العرب، قبل الإسلام

Sanctification
of water When Arabs before Islam

Dr. Saad Abood Sammar

University of Wasit- College of Education

Abstract

The study sheds light on the sanctification of water among Arabs before Islam, which is the root of this phenomenon in the ancient Near East civilizations and the implications of this influence on the beliefs of the ancient Arabs. In this study, we will also review the water gods of the Arabs before Islam, and the evidence to support the idea of water sanctification, including: the installation of the gods at the source of water; it is a symbol of purity and the destruction of water resources, being inhabited by hidden forces, The myth that accompanied the digging of some wells and the graves of holy ancestors added sanctity, and the study focuses on the water is the origin of the universe, because it is the origin of creation, and the secret of its permanence, and as is the origin of the end.

يشغل الماء أهمية كبيرة في حياة العرب ومعتقداتهم ، ففي بيئة صحراوية يشح فيها الماء، جعله من بواعث النزاعات القبلية وحروبها سواء أكانت من اجل الحصول على الماء أم لدفاع القبيلة على مواطنها التي يتوافر بها الماء، فضلاً عمَّا خلفته هذه الشحة من طقوس ومعتقدات اجتماعية ودينية ارتقت بالماء إلى المُقدَّس. وثمَّة شواهد ودلائل غير قليلة تؤكد أهمية الماء في حياة العرب قبل الإسلام وقدسيته.

ولّنا أن نتسأل، لماذا قدّس الإنسان المياه منذ القدم؟ ما مبعث هذا التقدّيس؟ هل كان تقدّيس المياه عند العرب قبل الإسلام راسباً اجتماعياً ودينياً بقى عالقاً في ذاكرتهم الجمعيّة ؟ هل توارثها العربي القديم من إنسان حضارات الشرق القديم بفعل شتّى عوامل الاتصال أو التوارد؟ هل أضاف الإنسان العربي لتلك المعتقدات من بيئته ووائمها لجعلها تتوافق مع متطلباته ومعتقداته ؟ نحاول في هذا البحث الإجابة عن هذه التساؤلات، وأن نُجذر لظاهرة قُدّسية المياه في المعتقدات العربية القديمة، ومتماثلاتها في معتقدات الشرق الأدنى القديم، واسباب هذا التماثل. محاولين تسليط الضوء على فكرة هي أُس هذا البحث مفادها، أنّ الماء هو مبتدأ الحياة (أصلها)، والعنصر الأساس الذي يمنحها الديمومة، ومن ثمّ منتهاها.

مما لا ريب فيه إنَّ تقدّيس المياه مُعتقد له جذوره في حضارات الشرق الأدنى القديم، فاقترنت المياه بالآلهة بمّا يعطي تصوَّراً واضحاً على أهميتها في حياة هذه الشعوب وقدُسيته. ففي العراق القديم عُدّ الإله (انكي) مسؤولاً عن المياه في الأرض، ودلالة أسمه عند السومريين (سيد الأرض)، وعند الأكديين عرف بـ (إيا Ea) والذي يعني (بيت الماء)، أو (مقر الماء)[١]، حيث تحيط مملكته المياه بالعالم وأسفله[٢]. وبذلك أُسندت وظيفة المياه العذبة إلى الإله إيا؛ لأنَّ المياه العذبة تُعدّ المانحة للحياة ومصدرها الأنهار والآبار والينابيع، ومن ثُمّ فإنَّ مصدرها الأرض، لذلك امتلك (إيا) كل خصائص المياه؛ فهو واهب الحياة، ودائم الوجود، مُطّهر، ومُخصّب[٣].

ولأهمية الماء عند السومريين وقدسيته، فقد أُتخذ الماء شعاراً لسومر، المتجسد بالإناء الفوار، الذي ظهر في أعمالهم الفنية، منها: ختم اسطواني يعود إلى العصر السومري الحديث عُثر عليه في الوركاء، يحمل كتابة تُبين أنّ الإله إيا هو الذي يحمل الإناء الذي ينبع منه الماء، وفيه عرض يظهر صورة الإله إيا يحمل بيده صورة لحيوان مُرّكب من ماعز وسمكة، وهو حيوان الإله أيا المقدس الذي

يدل نصفه (الماعز) على ينابيع الماء العذب من الجبال، ونصفه الآخر المكوّن من (السمكة) على البحر المحيط وهو خليج الرافدين الذي يخزن الماء العذب(٤).

وصوَّر الكائن الخرافي (الطير أمدوگود) في العصر السومري القديم بهيأة نسر وبرأس أسد وبجناحين واسعين(٥)، ودل اسمه على معنى (الغيمة الثقيلة الوافرة)، ووصّف أحيانا بـ (الماء المقدس)؛ لكونه يُمثل الضباب أو قطراته التي تسقط على شكل ماء خفيف على الحقول والبساتين(٦).

وعُرّف الإله أدد بأنّه إلهاً للعواصف والزوابع والمطر والظواهر الجويّة المُهيبة والمُريعة كُلّها، ومن مظاهره البرق والرعد(٧)، وكذلك الإله عيد **(Id)** أحد أعوان الإله (إنكي) وينوب عنه في المحافظة على المياه العذبة وتوزيعها(٨)، وارتبطت الإلهة السومرية (نانشه) بالمياه الحلوة، مثل: الأنهار والقنوات، والمالحة ،مثل: البحر(٩). وشغلت وظيفة رعاية الأهوار الجنوبية (١٠).

وأرتبط الإله نابو أحياناً بالري والزراعة، على الرغم من أنَّ وظيفته الرئيسة الكتابة ، فهو واهب الخصب، ومُفجر الينابيع عند الآشوريين(١١). واضطلعت بعض الآلهة بمهمة الإشراف على الأنهار والقنوات، فمثلاً عُدّ الإله (أنكميدو) إلهاً للجداول والقنوات؛ إذ عيَّنه إنكي لينظم شؤونها. هذا ما تضمنته أسطورة (إنكي وتنظيم الكون) (١٢) .

وصوّر الإله شمش في أحد أختام العصر الأكدي، تتبع المياه من أكتافه، مَّما يُظهر الصّلة القوية بين الماء والنور التي تجمعهما في معتقدات الشرق الأدنى القديم(١٣). وكان للإله (سين) أيضاً علاقة مباشرة بالمياه التي تسقط من السماء لتسقي النبات، ولُقب بلقب (ملك المناطق المطرية)؛ وهذا يعني له علاقة مباشرة بالمياه التي تسقط من السماء لتسقي النباتات ولُتسهم في عملية خصب الأرض(١٤).

وعند المصريين القدماء يُعدّ نهر النيل مصدر الحياة المصرية كلها، لذا شغل حيزاً لا بأس به في ديانتهم واساطيرهم، وقد رمزوا له بالإله حابي، الذي وصف في تعويذه بأنّه الإله العظيم، إله الأرض الأزلية، وإله النيل، وربَّ المياه (١٥).ومن الالقاب الأخرى التي أُطلقت عليه: خالق كل شيء، وهو اللقب الذي يحمله الإله نون ربّ الماء الأزلي، وفي نصوص أخرى أعطوه بعض صفات الإله أوزريس(١٦). ومن آلهة المياه في مصر القديمة الإله (مين) الذي من وظائفه جلب الأمطار للأراضي

الجدباء[١٧]. والإله خنوم، إله منطقة الشلالات التي منها منابع النيل، فهو مُفجر منابع النيل، وخالق البشر، يُصوّر وهو يسكب الماء من فوق كوكب الأرض[١٨].

وطبيعي أن تتجه أبصار الناس إلى تقدّيس مصدر الخصوبة والعطاء، ولا سيَّما في المناطق التي تعتمد على مياه الأمطار، ففي المعتقدات السورية القديمة جَسّدَ هذا العطاء السماوي الإله (بعل/هدد) ومساعدوه من العفاريت الذين يُشخّصون الرياح والصواعق والأنواء الجوية، وكان يرمز له برسم الصاعقة والثور المُقدّس الذي يُجسد قوى الطبيعة[١٩]. ومن الآلهة الأخرى التي تُمَّثل المياه، الإله إيل: الإله الأب الذي يُمّثل المطر؛ والإله بيتيل: الذي يُمّثل مكان الإله إيل في المياه عند منبع النهرين؛ والإله عتل (اطلس) إله البحر والملاحة؛ والإله عاي(أيا): إله المياه البابلي الذي صار إله مدينة عاي الكنعانية؛ والإله داجون: إله الجنوب والمطر والأسماك، وأحياناً يوصف إلهاً للطقس؛ والإلهة عشير (أشيرة) الإله الأم في الأساطير الأوغاريتية، ولأنَّها إلهة المياه، فقد كان من صفاتها (المشي على الماء)[٢٠].

وقُدّست المياه في المعتقدات الإيرانية القديمة أيضاً؛ وذلك لندرة وجود الأنهار في الفلوات الإيرانية، وأنْ وجودت فاغلبها فصلية أيّ أنَّها موجودة في الشتاء عندما تذوب الثلوج، فتأخذ بالجريان، ولكن في فصل الصيف يقل مستوى المياه فيها، واحياناً تجف؛ ولهذا فإنَّ إيران من جُمَّلة المناطق الجافة، وهذه المسألة قديمة في إيران[٢١]. وإنَّ أهمية المياه كونه العنصر الفعال والحياتي عند الإيرانيين القدماء، كان هذا باعثاً، لأن يعبدوا إلهة اختصت بالمياه عُرفت بـ (آناهيتا) ارتبطت بالمياه في إيران [٢٢]. وعن تسمية (آناهيتا) فهو متأتي من قُدّسية المياه المُطلقة المتكاملة لدى الإيرانيين القدماء، ويرد الاسم الكامل لـ (آناهيتا) في متون الكتاب الديّني المقدس القديم (أفستا) بصيغة (اَرِدْوِي سَور آناهيتا)[٢٣]، فالمصطلح يتكون من ثلاثة أقسام، الأول: كلمة آردوي وهو اسماً لنهر مُقدّس أسطوري، وأصبح اسماً لشخصية إلهية مُقدَّسة معنويَّة[٢٤]. أمَّا القسم الثاني من الاسم: وهو (سورة)، ومعناه القوي والمليء بالحيوية، فامتلاك القدرة والحيوية من أهم خصائص الإلهة وصفاتها البارزة، ومن هنا ندرك أنَّ قوة آناهيتا جاءت من كثرة المياه، وشدة جريانها في الأنهار، والقسم الثالث من التسمية: هو مصطلح آناهيتا، فالاسم مُركَّب يتكون من مقطعين الأول: آنا(an) ومعناها النفي، والمقطع الثاني: هيتا

(Ahita)، وهي صفة مفعول ومعناها العيب، فالاسم كاملاً معناه عديمة القذارة أو العيب (الطاهرة من الدَّنس) [٢٥].

وأسست الزرادشتية اعتقاداً لدى الناس، أنَّ لكل مخلوق سَويَّ حَسن إلهاً مؤَكلاً به، فليس من العجب أنَّ يكون لأربعة عناصر حياتية مُقَّدسة في الدنيا مثل (الماء والهواء والتراب والنار) إله خاص بكل واحد منها: مثلاً ميترا أو مهر إله موكل للشعاع والنور، وتيشتر[٢٦] أو تير إلهة موكل للأمطار، وآذر إله موكل للنار. أمّا الماء فالإلهة الموكلة إليه هي آناهيتا[٢٧]، فأصبحت إلهةً للمياه، وميثيو قدسيَّة الماء متأتٍ من تعرض أرض إيران في الماضي السحيق إلى العديد من سنيّ الجفاف والقحط والجدب وقلة المياه، فليس من المعقول أن لا يتّم تقّديس المياه عندهم.

وتمَّاثلت معتقدات العرب القدماء مع معتقدات شعوب الشرق الأدنى القديم في النظر إلى المياه بقُدّسية، حينما خصصوا لها آلهة اقترنت بالمياه وأكدت قدسيته، فهذا الصنم هبل الذي يُعدُّ أعظم أصنام قريش كان له أثراً في الطقوس والوظائف التي ارتبطت بالماء ، بدلالة أنَّ قريش كانوا يستقسمون عنده بالأزلام [٢٨]، فأحد هذه القِداح [٢٩]، كان مُخصصاً للمياه، فإذا ارادوا أن يحفروا بئراً، ضربوا بالقِداح ، فحيث ما خرج عملوا به[٣٠].

وما يُعضد وظيفة الإله هبل وارتباطها بالماء ما ذهب إليه الباحثان (أورت) و (دوزي) : إنَّ هبل القرشي في مكة ، في الأصل الإله بعل ، ويوافقهم الرأي (نولدكه) بأن بعل ليس عربياً ، بل أخذه العرب من جزيرة سيناء ، وعُرف لفظاً ومعنىً عند العرب مثل (أرض بعل) أو (البعل) السيد[٣١]. وما يؤكد ذلك أنَّ أداة التعريف عند العرب في إقليم الصفا (اللهجة الصفوية) هي (الهاء)، فعليه يكون اسم (هبل) مركب من أداة التعريف الـ (هاء) مضافة إلى الإله بل أو بيل عند البابليين، و(بعل) عند الكنعانيين [٣٢]. لذا فإنَّ الإله هبل يتماثل في وظائفه مع الإله بعل ، لكون الأخير عُرف إلهاً للخصب في سوريا ، فضلا عن ذلك ارتباط كلمة بعل بالخصب والمطر. فكان يُطلق على الأراضي الزراعية التي لا تُسقى بالواسطة، وإنَّما تُسقى بالمطر بـ (الأرض البعلية) ، بمعنى الأرض غير المسقية أيَّ التي تُرْوَى بما تجود به السماء بناءً على الاعتقاد الأسطوري القديم الذي مفاده أنَّها أرض الإله (بعل) وأنه الذي جاد عليها بالغيث[٣٣]. فالعرب صوَّروا هُبل كما صوَّر الكنعانيون بعلاً ، وعَبَدوه كإله

الخصب، وهكذا وبلا تردد يُعدُّ هُبل إلهاً للخصب والرزق، ومن ثم إله السعادة وشُبّه برّب الأرّباب في معتقدات العرب [٣٤].

وارتبط الإله خرج، الذي عُبدَ من قبل الثموديين واللحيانيين بالمطر[٣٥]، ويعني أول ما يخرج من السحاب[٣٦]. وقد انتقلت عبادته من جنوب الجزيرة العربية من قبل المعينيين إلى شمال الجزيرة في مملكة لحيان، مما يؤكد تأثر اللحيانيين بالديانة اليمنية ، وقد ورد في أسماء العلم المركبة اللحيانية مثل (عبد خروج) و(زيد خروج)[٣٧]، ومثّل عندهم إله المياه [٣٨]، لذا يتمّاثل هذا الإله (ذا خرج) مع الإله (عثتر) بصلتهما بالماء، ماء الارض، وماء السماء (المطر)، واقترن بريّ الأراضي الزراعيّة، فعُرف الريّ الموسمي بـ (سقي عثتر)[٣٩]. كما أنَّ الإله (ذا خرج) يُمثل الإلهة الزُهرة عند اللحيانيين التي تمثل الماء والمطر . ومن الآلهة التي ارتبطت بالمطر أيضاً هو (المِرْزَم) الذي عبدته قبائل ربيعة، وهو من العبادات الكوكبية، والمِرْزَم من الغيث والسحاب الذي لا ينقطع رعده، وهو الرَّزم أيضاً، وبه سُمّي نَوْء المِرزم، ويبدو أنّ العرب كانت تستسقي بنوئه، والمرزمان نجمان من نجوم المطر، احدهما في الشّعري والآخر في الذراع، ويسمّى الغُميصاء[٤٠]. وكذلك من الآلهة التي ارتبطت بالماء (المُطَّلِب) إذ تسمّت العرب بـ (عبد المطلب)، وطالب وطلب / تألب وتلب ، وهو من آلهة العرب القدماء، والمطلب: تُقال للماء، إذا كان صعب الطّلب، وهو بهذا المعنى يمكن أن يشير إلى أنّ المطلب كان إله الماء والخصب عند العرب القدماء، ولنا في جد الرسول عبد المطلب وعمه أبو طالب ما يُشير صراحةً إلى أنّ اسميهُما على علاقة بهذا الإله، لا سيمّا أنَّ عبد المطلب كان له دور ديني وظيفي يتعلق بسقاية الحجيج، وقدرته على طلب الماء في الاوقات الصعبة، واستسقاء المطر[٤١].

أمَّا يرحبول الذي هو رأس مجمع الأرباب التدمريين وثالوث أربابهم الشهير (بل ويرحبول و عجلبول)[٤٢]، وهو من الآلهة الشمسية [٤٣]، فقد عُبد في تدمر بصفته الإله الواهب للماء، والإله الرازق بحسب النقش المدون على مذبح محفوظ في متحف تدمر (A 1192) : " هذا المذبح صنعه مالك بن مربنا من أجل (الإله) يرحبول الواهب الماء لقرية أرك (٢٨ كم شمال غرب تدمر) ، من أجل (الإله) حامي القرية ، من أجل (الإله) الرازق"[٤٤] . كما صار (يرحبول) إلهاً لعين الماء افقا (من أهم عيون الماء في تدمر)، فكان يُعين مَنْ يقوم على رعايتها[٤٥]، فهو إله النبع بدلالة أسمه

(بعل يرحو) التي تعني رب النبع المبارك[٤٦]. وكان هذا الإله في الأصل من آلهة المخصصة للمياه ، فهو إله الواحة عند الآموريين، وعُرف باسم يرح ثُمَّ اقترن بالإله بول (بعل) عند مجيء الآراميين [٤٧].

والإله حوت الذي عُرف من دخوله في اسماء الأعلام اللحيانية (عبد حوت) ، فهو يُمثل أحد آلهة البحر التي تُعين التجار المسافرين بحراً ، أو يكون له صلة بالإلهة (اتارجاتيس) النبطية إلهة الدلافين [٤٨]. والإله بعلشمين إله السموات (الحاملة للسحب والمطر)، وهناك من يرى في أصل هذا الإله كنعانياً قديماً يعني (سيد الأرض)، ورد ذكره في نصوص أوغاريتية (رأس شمرا) تعود إلى منتصف الألف الثاني ق.م ، وتُركز ملامح شخصية هذا الإله على الخصب – المقترن بالمياه– [٤٩]. والراجح هو شبيه الإله (هدد) إله العاصفة والخصب، إن لم يكن هو هدد نفسه، لأنه لا نجد اسم الإله (هدد) في تدمر[٥٠] .

وتضيف الشواهد الآثارية التي عُثر عليها في معبد الإله بعلشمين (المعبد الثالث) ، بما يقوّي الاعتقاد أكثر بأنه من آلهة المياه والخصب، ففي نحت بارز على نصبٍ للبخور، صوَّر ماسكاً بيده اليمنى صولجان، وساعده الأيسر ممدود إلى الأمام [٥١]. وفي تحليل لهذه الصورة يتضح أن الصولجان هو السلاح ذاته الذي حمله الإله الرافديني (أدد)، ليُسيّطر به على البرق والرعد والامطار، كما أن مد اليد إلى الأمام هي إشارة أُريد بها الرمز للخير والعطاء.

ويزيد اعتقادنا بارتباط الإله بعلشمين بالمياه ، من المنحوتات التي عُثر عليها في معبده في مدينة الحضر (المعبد الثالث) ، ففي نحت على الرخام (رخام موصلي) اسمر اللون يبلغ ارتفاعه (٣٠×٧٧سم) وسمكه (١٥سم) ، وعليه نقش لأربعة اشخاص ثلاث نسوة ورجل. الذي يهمنا من النقش صورة الإله بعلشمين والنسوة الثلاث اللواتي وضعن على رؤوسهنَّ تيجاناً على شكل ابراج، ويخرج شعرهن من تحت التيجان، وقد تشابهت ملابسهنَّ، وتتمنطق كل واحدة منهن بحزام وتضع القلائد حول الرقبة، وتحمل المرأة في اقصى يسار النحت حزمة أغصان تنتهي بأثمار كروية، والمرأة الأخرى تحمل ثمرة تشبه الرمانة ، بينما المرأة الأخرى التي على يمين الصورة تضع يدها اليمنى فوق وركها، ويظهر في المنحوتة الإله بعل شمين يحمل بيده اليمنى المثنية إلى الأعلى ثلاثة اشرطة تمثل حزمة البرق[٥٢]. ويُعلق (الباحث واثق الصالحي) على هذه المنحوتة بأن حزمة البرق ترمز للإله

(بعلشمين)، سيد السماء، إله الرعد والبرق والامطار ، ووظيفته الأساسية هي حماية المزروعات من خطر الكوارث ، وحزمة البرق هذه ترافق مطر الخصوبة التي تحول الصحراء إلى مزارع وتحافظ على حياة الإنسان والحيوان ، وتبرز عبادته في الصحراء [٥٣]. ومما لا يقبل الشك أنَّ هذه المنحوتة لها دلالاتها فتعطينا انطباعاً عن معتقدات الخصب في الديانة الحضرية من النسوة الحاملات للمزروعات، واقترانهنَّ بوجود الإله بعلشمين، الإله المتحكم بالبرق والمطر، فاجتمعت في هذه المنحوتة عدد من رموز الخصب (المرأة ، والمزروعات ، وحزمة البرق).

ويتماثل الإله (بعلشمين) مع أحد آلهة الرافدينية المرتبطة بالماء، هذا ما يراه (الباحث والآثاري فؤاد سفر) من أنَّ الإله (ادد) إله الأعاصير والبرق والجو البابلي قد منح صفاته إلى الإله بعلشمين ، ويعزز رأيه باللوح المكتشف في المعبد الثالث في مدينة الحضر، والمخصص للإله بعلشمين ، يُطالع في هذا اللوح مشهداً لثلاث نسوة ، وشكل رجل بيده حزمة البرق [٥٤]، بينما يُماثل باحث آخر[٥٥] الإله (بعلشمين) مع الإله (حدد) من المنحوتات التي عُثر عليها في خربة التنور في الأردن التي تُمثل إلهاً جالساً بين عجلين وبيده حزمة البرق، وقد شُخِص هذا الإله على أنّه (حدد) إله الرعد والعواصف. وهذا ما يدفعنا للقول: ثمَّة تشابه في معتقدات ارتباط الآلهة في الشرق الأدنى القديم بالمياه، إذ تؤدي الآلهة الوظائف ذاتها: (الرعد، والأمطار، وحماية المزروعات) ولكن بأسماء مختلفة : (ادد ، وحدد، ورمانو الأموري – وصانع الصواعق – ، وبعلشمين) وأحياناً تتبادل الأدوار.

ومن آلهة المطر عند العرب (قُزحَ) وهو الإله (كوز) إله آدومي[٥٦]، كان إله الجبال والبرق والرعد والمطر، وكان العرب يحافظون على عبادته قرب مكة . فهو يقابل (حدد) إله المطر عند السوريين، والراجح أنَّ هذا الإله آدومي وانتشرت عبادته في أنحاء جزيرة العرب[٥٧]. وورد اسم الإله قُزح في نصوص المسند ، بصفته الإله المسؤول عن السحاب ، وذُكر أنّ قُزح هو : اسم ملكٍ مُكَّل بالسَّحاب[٥٨]. وهناك من يرى أنَّ عملية نحر الهدي أيَّ الهدية التي يتمّ بها الحج ، هي شكر للإلهة الشمس مُسْبَقاً على تلبية دعوتهم في الإمطار ، أو يتظاهرون أنّ دعوتهم لُبّيَت بعدُ، وكأنّ المطر نزل وتدفق وصار الحجيج ـ سحرياً. هم السيل المُندفع في مرحلة أولى من عرفة وفي مرحلة ثانية من مزدلفة. وإذ صحّ هذا، فهو يعني شكراً خيالياً للشمس إذ ضعفت في عرفات قبل الغروب وهذا المطلوب منها، كأنّ المطلب سلبي، والشكر الخيالي يتجه إلى قُزَح، إله البرق والرعد والأمطار، فقد

لّبى بالإمطار إيجابياً [٥٩]. ومن آلهة المطر أيضاً عند عرب الجنوب يهرهم إله المطر عند المعينيين[٦٠].

وعُدّ الإله منضح إلهاً للري عند الثموديين ، وإلهاً للماء والري والحدود عند المعينيين ، ذُكر اسمه مرّات عدّة في النقوش العربية الجنوبية [٦١] . ومن الآلهة التي ورد اسمها في مجمع الآلهة الثمودية هو هيغ أو هَيْج ، ويظهر من معاني اسمه كان مرتبط بالمطر والعواصف، بدلالة قول العرب : يومنا يوم هَيْجٍ أَي يوم غَيْم ومطرٍ، ويتماثل مع الإله (الشّعري) هذا ما نلمسه من بيت الشعر الذي جاء فيه:

ونارِ وَدِيقَةٍ، في يومِ هَيْجٍ من الشّعْرَى، نَصَبْتُ له الحَنِينا [٦٢].

وتتجلى الروح الإلهية في الماء، هذا ما نستشفه في نمط من الأساطير التي ترتبط بعبادة الإلهة اتارغاتيس وابنها ، إذ كانت الروح الإلهية تكمن في الاسماك المُحرمة التي تعيش فيها، وكانت اتارغاتيس على وفق إحدى الأساطير التي شاعت في الحيرة وعسقلان قد غرقا في الماء . وهو ماء الفرات ـ في الحالة الأولى، والبركة المقدسة عند المعبد في الحالة الثانية، وتحولا إلى سمكتين، أي تتوقف حياة الإله في صورته البشرية لكنها تستمر في المياه التي يُدفن فيها[٦٣].

أمّا عن صورة المياه الأولى التي حملت طابع القُدّسية فنجدها في الرواية المخزونة في الذاكرة الجمعيّة العربيّة القديمة التي أُعيد انتاجها بنزعة إسلامية، ووصلتنا برواية لـ (ابن عباس) يهُمنا منها ما يتعلق في المياه الأولى التي هي أصل الخلق، إذ خلقها الله، فكان عرشه على الماء، فلّما أراد أَن يخلق الخلق أَخرج من الماء دُخاناً، فارتفع فوق الماء فسُمّي السماء، ثم أَيبس الماء فجعله أَرضاً واحدة، ثُمّ فتقها فجعلها سبع أَرَضين، وخلق الله الأَرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على الصّفاء، والصّفاء على ظهر ملَك، والملَك على صخرة، والصخرة على الريح، فاضطرب الحوتُ، فتزلزلت الأرض، فأَرسى عليها الجبال فقرّت[٦٤]. وربّما نجد تصوّر العربي للمياه الأولى له متماثلاته في أسطورة الخليقة السومرية أو لعله جذورها. إذ ترد فيها أنَّ المياه الأزلية أو المياه الأولى هي التي خلقت نفسها، وأنّها كانت المادة الأولى التي ولدت منها جميع الأشياء، وكانت المياه الأزلية تتألف من عنصرين مختلطين من الماء هما العذب وهو العنصر المذكر والمالح وهو العنصر المؤنث[٦٥].

واستمرت مفاهيم وتصورات السومريين بهذا الشأن عند البابليين[٦٦]. بدلالة النص الأسطوري (حينما في العلى) لم يكن في الوجود من شيء سوى المياه الأولى الممثلة في ثلاثة آلهة : "آبسو" المياه العذبة، و" تيامت" المياه المالحة، و "ممو" الضباب[٦٧].

ولقُدّسية المياه عند العرب قبل الإسلام، فقد نصبت بعض الآلهة عند المياه سواء أكانت آبار أم عيون أم مياه جارية، لتكون حامية لها، والأدل على ذلك أنَّ عمرو بن لُحَي الخُزاعي حينما استقدم هُبل من هيت من أرض الجزيرة (الفراتية) نصبه على بئر (الأخسف) في بطن الكعبة، والعرب تسميه (الأخشف) ، وأمر الناس بعبادته، وهذا بطبيعة الحال اقتران للإله بالماء المُقدّس، الذي كان من وراء نصبه على هذا البئر. وأشار أحد الباحثين [٦٨] إلى أنَّ نصبه عند بئر الماء متأتٍ من قدسية المياه عند العرب القدماء، وهذه إشارة واضحة وصريحة إلى أنه كان له علاقة بالرزق والخصب في عقيدة العرب. أو لعل نصبه في جوف الكعبة على جبٍّ (بئر) لا يخلو من دلالة رمزية، فـ (هُبَل) ذَكر وهو أب ومن بناته اللات والعُزى ومُناة الثالثة الأخرى، وهو بوجه من الوجوه من رموز الخصوبة يستمد معناه الرمزي من الماء ، وهو يُشبه الإله بعل في صورة ملك جالس على عرش عظيم ، كمّا كان عرش الآلهة عند السومريين على الماء، وكذلك تصوير الجزريين الإله وقد استوى عليه بعد الخلق[٦٩]، وفي سياق الدلالة نفسها ، نُصب الإلهين إساف ونائلة على مقربة من زمزم، وهما صنمان شاع على وفق رواية (ابن الكلبي) بأنّهما رجل وامرأة من جرهم : إساف بن يعلى، ونائلة بنت زيد من جرهم ، كانا عشيقان في أرض اليمن ، فأقبلا حجاجا ، فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت، ففجر بها في البيت، فمسخا حجرين وضعا عند الكعبة ؛ ليتعظ الناس بهما، فلمّا طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها ، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم، فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما [٧٠].

ويبدو أن نصب الأصنام (هبل، وإساف ونائلة) في أمكان المياه (الأخسف، وزمزم) متأتي من قدسية هذين البئرين والماء عامة ، فضلاً عن رمزية الماء، أولاً : كونه وسيلة تطَّهير بل رمزاً للطهارة ، وثانياً : الموقع والجوار الذي يقع فيه ماء زمزم، فلئن كان الأخسف مستودعاً لمّا يُقدَّم للكعبة من هدايا في زمن متأخر، فلعلها قد كانت قبل ذلك بئراً حقيقية تطفح ماء ثُمّ جفّ معينها ، فإنَّ زمزم لها علاقة بالكعبة وتعظيمها لا سيّما وهي تقع على بعد ثمانية عشر متراً عن الحجر الأسود المقدس[٧١].

ونُصَّب الإله ذو الشرى بالقرب من المياه أيضاً واقترنت قدسيتهما ببعضهما، وكان صنما لدوس وله حِمى حموه له، وبه وشل من ماء يهبط من جبل، هذ ما جاء في رواية تبين إسلام والدة الطفيل بن عمرو الدوسي، قال، فقالت: بأبي أنت وأمي أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئا، قال، قلت: لا أنا ضامن لذلك، فذهبت، فاغتسلت ثم جاءت، فعرضت عليها الإسلام، فأسلمت [٧٢].

ويبدو أن القدسية التي تُسبغ على البئر اتخذت شكلاً يوحي بأن القوة الإلهية كامنة في المياه نفسها، لذا فغالباً ما ترتبط المعابد بأماكن وجود المياه. بدلالة أن معبد الإله ذو غابة . الذي يُعبد من قبل اللحيانيين ـ في العذيب ، التي فيها قنوات الري الرئيّسة التي تتغذى منها المنطقة هذا ما تظهره النقوش اللحيانية على أطراف تلالها، والتي قُدرت بما يزيد على الأربعين نقشاً دعائياً وتضرعياً في منطقة لا تبدو سكانية، يؤكد أن لهذا الأمر صلة بالتقديس الذي اظهره اللحيانيون لهذه المنطقة التي لها صلة أكيدة بالماء مصدر الحياة الرئيس، وربّما عبادته[٧٣]. ومن الشواهد الأخرى التي تدعم فكرة بناء المعابد عند منابع الماء، هو معبد خربة التنور في شمال غرب جزيرة العرب، والذي ربَّما كان سبب بنائه في هذا المكان للاعتقاد بوجود قوَّة خارقة في هذا النبع[٧٤]. لذا كان بناء المعابد قرب المياه لدواعي دينية تتمثل بالتطهير، وطقوس دينية أخرى ارتبطت بالماء، أو ربّما أنّ قدسية الماء اضفت القداسة على المكان، مَّما اعطى دافعاً قوياً لبناء المعابد على مقربة من المياه.

وتزيدنا الروايات الاخبارية بشواهد أخرى تؤكد ارتباط الماء المقدس بالمعابد ، فكان لبني غَطَفان ماء عُرف بـ (بُسُّ) قاموا وبنو عليه بناءً شبهوه بالكعبة، عُرف بـ (كعبة غَطَفان)، وكانوا يحجونه ويعظمونه ويسمَّونه حرماً آمناً لا يعضد شجرة ولا يُهاج عائذه، وبلغ فعلهم وما أجمعوا عليه زهير بن جناب، وهو يومئذ سيد بني كلب، فقال: والله لا يكون ذلك أبدا وأنا حيٌ، ولا أُخلي غطفان تتخذ حرماً أبدا، فنادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقام فيهم فذكّر حالّ غطفان وما بلغه عنها، وأنَّ أكرم مأثرة يعتقدها هو وقومه أَن يمنعوهم من ذلك، ويحوّلوا بينهم وبينه، فأجابوه، فغزاهم وهدم كعبتهم، واستمد بني القين من جشم، فأبوا أن يغزوا معه، فسار في قومه حتى غزا غطفان، فقاتلهم، فظفر بهم زهير وأصاب حاجته فيهم، وأخذ فارسا منهم أسيرا في حرمهم الذي بنوه، فقال لبعض أصحابه: اضرب رقبته، فقال: إنَّه في بُس، فقال زهير: وأبيك ما بُس عليَّ بحرام [٧٥]. لأن زهير كان أحمسياً في معتقده دفعه للانتصار للكعبة ولقريش[٧٦]. وتمدنا هذه الرواية بنسبية المقدس عند القبائل العربية أحياناً، وهذا أحد عوامل تفككها،

فكانت غطفان تنظر إلى (بُس) بتقديس إلى الحد الذي جعلت له حرماً مُقدّساً، خشت عوام بني كلب خرقه، ولكن سيدهم تجرأ عليه، فخرق المُقدّس؛ بقتله فرداً من غطفان عند الحرم المُقدّس، وهدم كعبتهم.

ويُعضد قداسة الآبار في مثيو المياه ، ما نسجت من روايات عن هذه القدسية، منها ما رواه لنا مجاهد، بقوله: كان في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل (عليهما السلام) حين رفع القواعد، وكان فيه ما يُهدى للكعبة من حليّ أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك ، وكانت الكعبة ليس لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرّة بعد مرّة ، وكانت جُرهم ترتضي لذلك رجلا يكون عليه يحرسه، فبينمّا رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت له نفسه، فانتظر حتَّى إذا انتصف النهار وقلصت الظلال وقامت المجالس وانقطعت الطرق، ومكة إذ ذاك شديدة الحر، بسط رداءه ثُمّ نزل في البئر، فأخرج ما فيها، فجعله في ثوبه، فأرسل الله عز وجل حجرا من البئر فحبسه حتَّى راح الناس فوجدوه، فأخرجوه وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسُمّيت تلك البيرة (البئر) الأخسف، فلما خسف بالجرهمي وحبسه الله عز وجل، بعث الله عند ذلك ثعبانا وأسكنه في ذلك الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة يحرس ما فيه، فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلّا ذعر منه، وكان ربّما يشرف على جدار الكعبة، فأقام كذلك في زمن جرهم وزمن خزاعة وصدرا من عصر قريش حتّى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت وعمارته، فحال بينهم وبين هدمه حتّى دعت قريش عند المقام عليه والنبي معهم وهو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد، فجاء عقاب فاختطفه ثم طار به [٧٧]. إن تفكيك مضامين هذه الرواية يكشف لنا؛ سبب تسمية البئر المقدس، بالاخسف، والمدة الزمنية الأسطورية لحراسة البئر التي قاربت (خمسمئة عام)، لإضفاء القداسة على البئر، بداعيّ أنّ العنايّة الإلهيّة هي من ارسلت الثعبان لحمايته . وتفصح الرواية أيضاً في رأي أحد الباحثين عن الارتباط بين الحيّة والماء، فمن ضمن معتقدات العرب أنَّ الشياطين تتخذ هيأة الأفاعي، وأنَّ أماكن المياه مسكونة بأرواح الجن، واسطورة الأفعى هذه التي تخرج من بئر الكعبة هي من بقايا هذه المعتقدات التي تربط بين الحيّة والماء، وتجعل منها حارسة للكنوز، ورمزاً للخصوبة[٧٨].

وتضيف الشواهد الأسطورية بما يُعضد اعتقادهم بحراسة الآبار والينابيع والعيون المُقدسة من قبل الأفاعي، ففي أحد الأساطير التي نُسجت عن عين إفكا في تدمر، التي يُطلق عليها اسم (العين المباركة)، وهي عين كبريتية يحرسها عفريت على هيأة أفعى، نصبه الإله يرحبول، وهذا الاعتقاد ذاته عند عرب الجنوب الذي يرون أن ينابيع الاستشفاء يسكنها جان، يتشكلون على هيأة الأفاعي[٧٩].

ولأهمية الماء في منطقة جدبة ومقدسة مثل مكة ، نسجت حكايات ارتقت إلى المقدس في قصة حفر بئر زمزم . فاحتفار البئر من قبل عبد المطلب صوّر وكأنه من عناية إلهية، فتروي لنا رواية حفره، فلّما أراد عبد المطلب حفره نذر لله لئن سَّهل عليه أمره ليذبَّحن أحد ولده، فخرج السهم على ابنه عبد الله ، وفداه بمائة ناقة[٨٠]. وفي سياق الدلالة ذاتها في طلب الماء والبحث عنه، ثمة رواية إخبارية تتحدث عن رؤيا مُقدّسة لا تخرج عن العناية الإلهية في إعادة حفر بئر زمزم فثمّة هاتف نُسج على غرار سجع الكهان، أمر (عبد المطلب) في كيفية البحث عن البئر (الماء المقدس) ؛ لارتباطه بطقوس الحج التي تُعظمها أغلب العرب ، وكانت هذه الرؤيا هي السبب في حفر بئر زمزم : قال عبد المطلب : إني لنائم في الحجر– حجر إسماعيل (عليه السلام)– إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة، قلت: وما طيبة ثُمّ ذهب عني، فلّما كان الغّد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني، فقال: احفر برة، فقلت: وما برة، ثُمّ ذهب عني ، فلّما كان الغّد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني، فقال: احفر المضنونة، فقلت: وما المضنونة، ثمّ ذهب عني، فلّما كان الغّد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني، فقال : احفر زمزم، قلت : وما زمزم، قال: لا تنزف أبدا ولا تذم تسقي الحجيج الأعظم، وعندما سَئل عن مكانها قيل له بين الوثنين إساف ونائلة، وقبل أن يجد الماء، وجد غزالين من ذهب وأسياف ودراعا [٨١]. إذن نحن في هذا المقام إزاء أنموذج أصلي و(موتيف) أسطوري، فالأمر يتم دائماً بطريقة عجيبة تتدخل فيها قوىّ غيبية غير منظورة وتتوسط بين عالم الأرض وعالم السماء وتضفي على الماء والبئر معنى القداسة[٨٢]. فقُدّسية ماء زمزم لا تخرج بحسب أغلب الروايات عن مبتدأه الأول بالزمن المقدس (مدة بحث هاجر عن الماء وتدخل الملائكة في ذلك، وتدفق الماء) أيَّ العناية الإلهية ، أو في رواية توغل في القدم تعود بدايات زمزم إلى عصر آدم ومبتدأ الخليقة. وفي هذا الصدد يرى الباحث في الأساطير العربية القديمة (محمد عجينة) [٨٣] بأنَّ مختلف الروايات الأسطورية عن أصل زمزم والأخسف وغيرها من الآبار تُعبر عن ذلك المعنى، فتصل الآبار والعيون ، مركز الحياة الاجتماعية ، بجد أعلى أو بأحد الأسلاف الأقربين. فيغدو آدم أو إبراهيم أو إسماعيل

أو عبد المطلب رمزاً من رموز الأب والجد واهب الحياة. ولا عجب فالبئر في اللغة العربية وفي الأحلام مؤنثة؛ لأنّ ربّها أو قيّمها ومستنبطها يدلي فيها بدلوه ، ولأنّها تحمل الماء في بطنها.

وربّما أن طمّر الآبار مثل (بئر زمزم) أو تحريم الشرب منها، وجعلها (بئر معطل)، هو معتقد ميثي أشبه ما يكون تكريماً لهذا البئر الذي شربت منه القبيلة لوقتٍ طويل، فحان الوقت لتحريمها، وتركها دون أن يقترب منها أحد، فلا يشرب مع الوقت مائها، وتصبح مع الوقت مزاراً من مزارات القبيلة ترمي فيه الهدايا (القرابين)، لذا أن طمر بئر زمزم لم يكن مجرد عملٍ طائش قام به الجُرْهُميون أو الخزاعيون قبل خروجهم، بل كان طقسّاً دينيّاً يقوم على تحريم (تقديس) الماء القديم، وتطلَّب الأمر تقديم الهدايا إلى إله الماء ـ إذا سلمنا بالمعتقد أنّ الآبار مسكونه بالأرواح ـ الذي بفضله عاشت القبيلة ونجَّت من العطش الشديد(٨٤) .

ويورد ابن اسحاق رواية طويلة مشحونة بالبعد الميثي تُبين أهمية الماء في بلاد صحراوية ارتقى فيها إلى المقدس بفضل هذه الأهمية، نقتطع منها ما يهمنا فقط والذيّ يتعلق بخصومة قريش مع عبد المطلب وهو في عمله بحثاً عن الماء، جاء فيها: نخاصمك فيها (أيّ زمزم)، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، قال: نعم، قال: وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، قال: والأرض إذ ذاك مفاوز، قال: فخرجوا حتّى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فني ماء عبد المطلب واصحابه، فظمئوا حتّى أيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة ونحن نخشى على انفسنا مثل ما اصابكم، فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه، قال: ما ترون، قالوا: ما رأينا إلا أنْ نتبع رأيك، فأمرنا بما شئت، قال: فإنّي أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته، ثُمّ واروه حتّى يكون آخركم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا، قالوا: نعم ما أمرّت به، فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ثُمّ قعدوا ينتظرون الموت عطشا، وقال عبد المطلب لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا، فارتحلوا حتّى إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبا، فلّما انبعثت

به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه ثُمّ نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتّى ملئوا أسقيتهم ثُمّ دعا القبائل من قريش، فقال: هلم إلى الماء فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا ثمُّ قالوا: قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبدا، إنّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهوّ الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا، فرجع، ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبينها[٨٥]. وفي قراءة عمودية لهذا النص يتبين لنا متوازيات فكرة رئيسة وردت في أكثر من أسطورة تتعلق بزمزم ثيمتها النحر للماء أو الفداء له، سواء ما اشرنا إليه سابقاً من أنّ عبد المطلب لّما أراد حفر بئر زمزم، نذر لله لئن سَّهل عليه أمره ليذبَّحن أحد ولده، فخرج السهم على ابنه عبد الله ، وفداه بمائة ناقة. أو في رمزية الفداء البشري لإله الماء حينما اتفقوا حال نفاذ الماء في البيئة الصحراوية، أن يدفنوا انفسهم تباعا، فالمتماثلات تبدو شاخصة في الرواية الأسطورية الأولى هو محاولة الافتداء بـ (عبد الله) ، وافتدائه بمئة من الأبل، أو اتفاق الرجال ومحاولتهم دفن بعضهم واحداً بعد الآخر، وهذا يجعلنا أمام معتقد له جذوره القديمة هو الفداء أو النحر طلباً للماء .

وفي العودة إلى قصة حفر بئر زمزم وتجليات قُدّسيّة الماء فيها، إذ كانت قريش تنحر قربانها على مقربة من مكان البئر، ولا يخرج ذلك عن معتقدهم بالعقر عند الآبار، بدلالة الهاتف الذي تجلى لـ (عبد المطلب) وهو يفتش عن مكان البئر المطمور، فجاء الهاتف يخبره : عند منحر قريش، أنه بين الفرث والدم[٨٦]. أو محاولة نحر (عبد الله) قرباناً للماء، كل ذلك ربّما هو طقس قديم يتصل بالنذور المقدمة لإله الماء (البئر)، ولا يتعدى صداه لعادة العقر عند الآبار في الموروث الشرقي المتوسطي القديم التي نذكر مثالاً عنها ما نقرئه في ملحمة كلكامش حينما توجه البطل كلكامش وصديقه انكيدو إلى غابة الأرز : إذ " حفرا بئراً وقربا إلى الإله شمش"[٨٧].

وتواصل الروايات المثيو إخبارية المشحونة بالمقدس وتدَّخل العناية الإلهيّة في اقران حفر الآبار مع الجدّ المُقدّس عند العرب عبد المطلب، إذ بعد حفره لزمزم صَّار إلى الطائف، فاحتفر بها بئرا يقال لها ذو الهرم، فكان يأتي أحيانا فيقيم بذلك الماء. وبعدها استولت عليه ثقيف دهراً ثُمّ طلبه عبد المطلب منهم فأبوا عليه، وكان صاحب أمر ثقيف جندب بن الحارث بن حبيب، فأبى عليه وخاصمه فيه، فدعاهما ذلك إلى المنافرة إلى الكاهن العذري، وكان يقال له عزى سلمة وكان بالشام، فتنافرا

على إبل سمّوها، فخرج عبد المطلب في نفر من قريش ومعه ابنه الحارث ولا ولد له يومئذ غيره، وخرج جندب في نفر من ثقيف، فنفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فطلبوا إلى الثقيفين أن يسقوهم فأبوا، ففجر الله لهم عينا من تحت جران بعير عبد المطلب فحمد الله عز وجل، وعِلّم أنَّ ذلك منة، فشربوا ريهم وحملوا حاجتهم، ونفد ماء الثقفيين، فبعثوا إلى عبد المطلب يستسقونه، فسقاهم. وأتوا الكاهن، فنفر عبد المطلب عليهم، فأخذ عبد المطلب الإبل فنحرها، وأخذ الهرم ورجع. وقد فضله عليه، وفضل قومه على قومه ، وفي رواية أخرى اسم الكاهن الأسطوري (سطيح) إذ قالوا له اقض بيننا، قال: قد قضيت، اختصمتم أنتم وعبد المطلب في ماء بالطائف، يقال له ذو الهرم: فالماء ماء عبد المطلب ولا حق لكم فيه، فأدوا إلى عبد المطلب مائة من الإبل وإلى سطيح عشرين ففعلوا [٨٨]. وهذه الواقعة المثيولوجية تُعيد إنتاج واقعة مثيلتها موغلة في القدم، هي أسطورة قيام جبريل الملاك بحفر زمزم، حين ارتطم حافر حصانه بأرض صلبة فانفجر الماء، لتشرب منه هاجر وابنها إسماعيل. لقد عاد الحفيد عبد المطلب إلى الصحراء، ليقوم بما قام به جده إسماعيل. بيد أنّه وهو يُفتش عن الكاهنة بحثاً عن حلّ النزاع، يقوم بعمل رمزي يُعيد من خلاله إنتاج أسطورة حفر جبريل الملاك للبئر [٨٩].

وقد ارتبط الماء بحياة عدد كبير من القبائل العربية، فشكّل شريان اقتصادها الرئيس، وفقدان الماء أو اهمال المحافظة عليه سيُعرض القبيلة إلى التمزق الاجتماعي ويلجئها إلى الارتحال بحثا عن مواطن يتوافر فيها الماء . ولنا في قصة قبائل الأزد اليمانية الكبيرة التي تركت مواطنها في اليمن عندما تصدع سد مأرب ، فارتحلت بحثاً عن موطنٍ جديد لها، وما لاقته في رحلتها من هول المصاعب حتى استقر بها المقام في مواطن المياه في العراق وبلاد الشام ويثرب ، وكان ذلك في عهد رئيسها عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن الأزد الذي أُطلق عليه عمرو مزيقيا [٩٠]، وكان كاهناً رأى أنَّ بلاد اليمن تغرق، فخرج هو وأهل بيته، ولمَّا وصلوا (نجران) ، مرّوا ببني الحارث بن كعب، وكانت بينهم حروب، وأقام من أقام في جوارهم من بني نصر بن الأزد وبني ذهل بن مزيقيا واقتسما رئاسة نجران [٩١] .

وتتجلى ميثيو قدسية المياه بنبوءات الكهان ودورها الأسطوري في التحكم بالطبيعة بحثا عن مواطن لقبائلها التي ينبغي أن تتوافر فيها المياه ، وحسبنا في هذا المجال ما جاء في رواية (ابن الكلبي) عن الرؤيا الأسطورية لـ (طريفة الكاهنة) عندما رأت في كهانتها أن سد مأرب سيخرب،

فنبهت عمرو بن عامر الذي يقال له (مزيقيا) ابن ماء السماء (من قبائل الأزد) إلى ذلك بقولها: أنه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنتين، فباع عمرو بن عامر أمواله وسار هو وقومه حتى تفرقوا إلى يثرب، والشام ، والعراق [٩٢].

وهناك طقس عند العرب قبل الإسلام اقترن بالمياه وارتقى إلى ميثيو المقدس عُرف بـ (طقس الاستسقاء) حينما تطلب الأمر استدعاء الآلهة لها؛ طلباً للمطر . حتّى غدت طقوس دينية مُقدّسة تمّثلت بممارستهم لطقوس وشعائر طلباً للمطر؛ وذلك حينما يصيبهم الجدب، وينحبس عنهم المطر مدّة، تجعلهم يُعانون من ذلك؛ لذا عمدوا إلى ما يُسمّى بـ (صلاة الاستسقاء)، ووصف (المرزوقي) هذه الطقوس والمعتقدات في قوله: كانوا إذا استمطروا عمدوا إلى السلع[٩٣]، والعشر – شجر – فعقدوها في أذناب البقر وأضرموا فيها النار، واصعدوها في جبل وعر وتبعوها يدعون الإله ليستسقيهم[٩٤]، ويضرمون النار تفاؤلاً للبرق .. وكانوا إذا فعلوا ذلك توجهوا بها نحو المغرب من بين الجهات، قَصَدوا عين الشمس[٩٥]، أو ليرحمها الإله وينزل المطر لإطفاء النار عنها. وجاء هذا المعتقد في شعرهم ، كما في قول الورل الطائي :

لا دَرَّ دَرُّ رجَالٍ خَابَ سَعْيُهمُ يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الأَزْمَات بالعُشَرِ [٩٦]

وما نار الاستمطار هذه إلاّ استرضاء للقوى الخفية التي كانت في زعمهم المُتحكمة في سقوط المطر، من منطلق أنَّ الاستسقاء هو دعاء الاستمطار[٩٧]. ويفسر أحد الباحثين[٩٨] هذا الطقس تفسيرا ميثولوجيا، فيرى أنَّ الإنسان القديم كان ينظر إلى الآلهة نظرة نفعية، فهم حين يصعَّدون البقر إلى الجبال ، يظنوَّن أن الآلهة تسمع توسلاتهم وشكواهم، لذا يضجون ويبتهلون، فإذا لم تستجب الآلهة لتوسلاتهم ، اشعلوا بين عراقيبها النيران ، كي يأتي المطر فتُطفئ النيران ، ويذهب الجفاف والقحط ، وإن لم تأتِ بالمطر، فهي تستحق ذلك المصير البشع.

واتُخذ الثور تعويذة سحرية في طقوس الاستسقاء، ومن جملة هذه الطقوس أنّهم كانوا يحشون جلد الثور بالبذور الزراعية، ويمزقون الجلد ليتدفق منه الحَب فيُمطرون[٩٩]؛ وهذه الممارسات السحرية بقايا طقوس واحتفالات قديمة تتصل بعبادة الثور وما يرمز إليه من الخِصب والمطر ؛ لأن الثور يُمثل قوة إلهية قادرة على التحكم في الرياح والسحب والمطر [١٠٠].

وهناك من يعتقد أنَّ طقوس استسقاء العرب بالثور هي من مخلفات عبادة إله يرمز له بالثور، وكان إلهاً للخصب والمطر ، وأنَّ النار المضرمة في حطب السلع والعشر إنَّما هي تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله – الثور– (١٠١). وربّما أنّهم ارادوا في إضرام النار وانبعاث الدخان منها والصعود بها إلى أعالي الجبال ظانين في طقوسهم هذه على أنَّ هذا الدخان سيتشكَّل منه السحاب الممطر، وأنَّ مُرتكّز هذا الطقس يُبنى على اعتقاد أنّ الثور هو من يأتي بالخصب والمطر، لأنّه يرمز للإله القمر الذي يقترن في معتقداتهم المطر بالنوء.

ولّعل أهل الحيرة مارس طقساً سحرياً للاستسقاء، هو سكب الماء، الذي عُدّ من العقائد الغيبية في طلب المطر، وكان هذا الطقس يُمارس في عيد المضالّ، إذ يجتمع حشداً كبير من أهل الحيرة مرّتين كل سنة في المعبد، وفي أيديهم ماء من الفرات، يصبوّنه في المعبد، فينساب في شق من الأرض، في اعتقادٍ أنّه يهدف في حقيقته إلى استجلاب المطر، أو في تفسير آخر – يصعب قبوله–، أنّه ذكرى الاحتفال بيوم انحسار مياه الطوفان، بضربٍ خيالي أنّ هذا الماء المسكوب هو مَنّ امتص ماء الطوفان(١٠٢).

وعرف عرب اليمن القدماء طقوس الاستسقاء، لأنّ طبيعة مجتمعهم وازدهاره قائم على أساس زراعي، واعتماده كلياً على المطر، بحيث شكَّلت قلَّته أو انعدام نزوله أو تأخره أزمة كبرى ، لذا لا بد من التوجه للجانب الديني، والقيام بالطقوس والشعائر التي تكفل أو تضمن بحسب اعتقادهم هطول المطر بشكل منتظم، وكلما زاد القحط أو ندر المطر تعقدت الطقوس والشعائر بحيث تشمل جميع سكان المنطقة(١٠٣).

وكان أهل اليمن يستسقون (يطلبون المطر) من الإله عثتر بوساطة المستسقين، أيّ الذين استسقوا، وهم كهان أو سدنة يُعرفون بـ (رشو)، وكانوا من عائلة كبيرة أرخ الناس بها ، هي عائلة (ذخلل) (ذو خليل)، والمذكورون هم : بكر خلل وكبر همو، أي من الإبكار، بمعنى أول المواليد في العشيرة وأكابرهم، وللبكر عند جميع الناس أهمية خاصة ومكانة، وكانوا يجعلونهم نذراً للآلهة (١٠٤).

ولأهل اليمن طقوسهم الخاصة في الاستسقاء يؤدونها في معابد الآلهة نجد تفصيلاتها في نقش سبئي مرموز (Ja:735)يتحدث عن جفاف أصاب مأرب، وعن انحباس مطر الخريف عنها وجفاف الأرض ويبس الاعمدة (اشجار العنب)، فاجتمع سبأ كهلن(ملأ مارب) ، وقرروا التوجه إلى معبد إله

المقه (معبد اوام)، واخذوا يتضرعون إليه بأن يستجيب إلى طلبهم بإنزال المطر عليهم، وقام الكاهن بعمل رقتهمو (رقية)، وقرأ الادعية، والناس يناجون المقه أن يستجيب لهم، فلما أكمل الكاهن مراسيم الاستمطار أوحى المقه إليه بوحيه له إنَّه سينزل الغيث عليهم، وما خرجوا من المعبد إلى بيوتهم حتى تساقط المطر عليهم ، فابتهجوا بذلك، وسجلوا حمدهم للإله المقه بتقديم ما نذروه لهم[١٠٥]. أنَّ كُلاً مما تقدم يقودنا إلى أنَّ أهل اليمن يُعدّون انحباس المطر عنهم ولا سيّما إذا كان لمدّة طويلة عقوبة من الآلهة تُنزلها عليهم؛ لتلكؤهم بتأدية شعائرهم الدينية، وتهاونهم في التعبد لها، فلّما انحبس المطر عنهم هذه المدّة عمدوا إلى استرضاء آلهتهم ، فتجمع ملأ مأرب كلهم (سبأ كهلان) رجال ونساء في معبد المقه وعلى رأسهم كاهن هذا الإله، فأرضاه بصلاته له، وأنزل على قلبه أنّه سيغيثهم، وقد أغاثهم حال خروجهم من المعبد [١٠٦]

ومن الطقوس الدينية التي أداها أهل اليمن عند طلب الاستسقاء من الآلهة بإنزال المطر هو (صيد الوعل) الصيد الديني للإله عثتر حيث ورد ذكر هذا الطقس في نقش سبئي قديم من مدينة هرم – خربة همدان حاليا – المرموز (CIH:547) ، وكانوا يشيرون إلى ذلك بذكر معبود زعموه يهب المطر مثل (ص ي د / ع ث ت ر) أو غيره من الآلهة [١٠٧] . والصيد المُقدّس عُرف منذ بداية الآلف الأول قبل الميلاد بحسب ما أشارت إليه عدد من النقوش، وكان هذا الطقس يؤدى من قبل الملوك ، يرافقهم الكهنة ، وكبار رجال الدولة ، ويُقام للإله عثتر، والغرض منه التقرب لهذا الإله ؛ لارتباطه بالأمطار والخصوبة، ولضمان موسم مطير. وما يزال الناس في حضرموت يُمارسون صيد الوعل من أجل هطول الأمطار[١٠٨]. فضلاً عن ممارسة الملوك لطقس الصيد المقدس فقد مارسه الحكام أيضاً، إذ خلفت لنا النقوش السبئية طبيعة هذا الصيد منها النقش المرموز (RES.3625) : يتحدث عن قيام (يثع امر بين سمة علي) أحد المكربين (حكام) سبأ بصيد عثتر، وشاركت المرأة في هذا الصيد المُقدّس ، وكانت الحيوانات التي تصطاد في هذا الطقس، هي : (الوعل، والبقر الوحشي)، وتقدم قرابين للإله عثتر أو الإله تالب [١٠٩].

وتتجلى طقوس الاستسقاء أيضاً في قصيدة من الأدب اليمني القديم كُتبت بالخط المسند، يتضرع بها أصحاب النقش بالدعاء إلى الإله (كهل)؛ طلباً للماء، بعد أن اشتدت عليهم أزمة القحط ؛ لشُحت الأمطار ، فجفت الآبار والوديان، وجاء ابتهالهم في أبياتٍ منها :

أمسكْتَ يا مولانا الْبَلَلْ

في كل ما علا وسَفَلْ

أعن مَنْ مِنَ العطش هزلْ (١١٠).

ونبقى في طقوس الاستسقاء في اليمن القديمة ، وتحديدا في حكم الدولة السبئية، إذ كانت توجه الدعوات والصلوات والادعية والتوسلات للإله عثتر بأرسال المطر إليهم سني انحباسه وتوقفه عنهم، ولهم كما لغيرهم من العرب في الجاهلية وفي الإسلام صلاة خاصة بالاستسقاء(١١١).

وأدى أهل اليمن طقوس الاستمطار للشمس بحسب ما جاء في قصيدة دينية عُرفت بـ (نقش القصيدة الحميرية أو ترنيمة الشمس) ، مكونة من (٢٧سطراً) ، وهي في مضمونها ، نشيد يتقرب فيه إلى إلهة الشمس ، إلهة المطر لديهم ، ويحتوي النص على الابتهال بطلب الاستسقاء ، وكأنّه أنشودة للمطر(١١٢) ، هذا ما يتجلى في بعض من الابيات منها:

".....

وفي (الشعيب) الخصب أزجيتِ

وبئر(يذكر) حتى الجمام ملأتِ

الحمد يا خير على نعمائك التي قدّدتِ

وعدكِ الذي وعدت به اصلحتِ

اعنتنا يا شمس إن أنتِ امطرتِ

نتضرعُ إليكِ ، فحتى بالناس ضحيتِ" (١١٣) .

ويتجلى في مقطع آخر من القصيدة ذاتها التضرع إلى إلهة الشمس بتقديم الاضاحي (بحسب القصيدة مئة اضحية) لها في طقوس دينية تُنشد هذه الأناشيد الدينية ، فيبتهلون بها من أجل منحهم المطر :

نستجير بك يا خير ما يحدث هو مما صنعتِ

بموسم صيد (خولان) مئة اضحية سفحت

ورأس قبيلة ذي قسد رفعت

وصدر علهان ذي بحير شرحت

والفقراء في المأدب خبزاً اطعمت [١١٤]

ومثلمّا عرف العرب طقوس الاستسقاء (طلب المطر)، نجد متماثلات هذا الطقس في حضارات الشرق الأدنى القديم، أو ربّما هي جذوراً لهذا الطقس. ففي المعتقدات الرافدينية القديمة، ربط البابليون المطر بحركة النجوم، واعتقدوا أنَّ حركة الكواكب في القبة السماوية تؤثر في تقلبات الجو وتسبب شحة المطر أو وفرته، وتتم مراسيم الاستسقاء في العراق القديم بقيام أربعة من النساء بالوقوف بوضع متقابل ثم يبدأن بتحريك أجسامهن وشعرهن الطويل، على أن تبدأ عملية التحريك برمي الشعر باتجاه اليمين ومن ثم إلى اليسار، وهذه العَلاقة بين طقس الاستسقاء وحركة الكواكب والنجوم تم التوصل إليها من خلال الاستنتاجات التي تبلورت في نصوص الفأل البابلية [١١٥]. والاعتقاد نفسه نجده عند العرب قبل الإسلام إذ اقترن المطر بالنوء، أيّ جعل الفعل للكوكب فيكون هو الذي أنشأ السحاب وأتى بالمطر[١١٦]، وكانت العرب تقول لابّد لكل كوكب من مطر، أو ريح، أو بَرد، أو حَرّ، فينسبون ذلك إلى النجم . وإذا مضت مدة النوء ولم يكن فيها مطر قيل خوى نجم كذا أو أُخوي[١١٧]. ومن ذلك نجد في حالة الجفاف وقلة سقوط المطر سبباً يدفع العراقي القديم إلى ممارسة طقس الاستسقاء كي تجود عليهم السماء بالماء، من خلال رقص أربع نساء متقابلات وتحريك شعورهن يميناً ويساراً[١١٨].

ويتجلى معتقد اقران المطر بالنوء وما كانت تُمارس من طقوس من أجل الاستسقاء ، فيما ذكره أحد الباحثين المُحدثين[١١٩] حينما رفع من ممارسة (المَيْسِر الجاهليّ) إلى طقس ديني سحري يُؤدى حين يُغيب نجم الثُرَيَّا المصحوب عادةً بنزول المطر فيمَّا يُسمّيه العرب (مدّة امطار الوسميّ)، وأنّه كان يُعتمد نحر الإبل وإسالة دمائها سقياً للقوى العلويّة حتّى ترد الفعل ، وتُنزل الأمطار سقياً لعبادها المستمطِرين. في عدَّ المَيْسِر وليمة جماعيّة يتم فيها التضحية بحيوان مُقدّس مُمثّل للإله المسؤول عن

الخِصب أيَّ القمر بوصفه وراء حدوث كل الأنواء المتحكمة في تواتر الفصول الطّبيعية وتغيّرات المناخ بما فيها مواسم المطر ومواسم الجدب .

وأدى أهل مكة طقوس استسقاء خاصة بهم بسبب ظروف بيئتهم القاسية، وكانوا يؤدونها في الأماكن المقدسة: الكعبة، وجبل (أبي قبيس)، وتفصيلاتها هي: حينما توالت على قريش سنوات مجدبة ذهب الزرع وقحل الضرع ، ففزعوا يستسقون ؛ فاخرجوا من كل بطن رجلاً ، وتطهروا، وتطيبوا، واستلموا الركن ، ثم ارتقوا أبا قبيس حتّى بلغوا ذروته، وكان رسول الله محمد(ﷺ) معهم، وهو يومئذ غلام قد أيفع، فقام سيدهم عبد المطلب يقول : اللهم ساد الخلة، وكاشف الكربة، أنت علام غير معلم، مسؤول غير مبخل، وهذه عبادك، وإماؤك بعذرات حرمك، يشكون إليك سنيّهم التي أكلت الظلف والخف، فاسمعن ، اللهم ، ومطرنا غيثا مريعا (مخصب) مغدقاً ! فما راموا والبيت حتّى انفجرت السماء بمائها ، وكظ الوادي بثجيجه (السيل الغزير) [١٢٠]. ومن عادات أهل مكة أيضاً بطلب الاستسقاء إنهم إذا جدبوا رشوا على أنفسهم الماء وتطيبوا وطافوا بالكعبة ولبسوا ملابسهم بالمقلوب تيمناً بانقلاب الحال، وصعدوا بالبقر جبل (أبي قبيس) تيمناً بمغيب الشمس وانعقاد الغيوم ، وهطول المطر[١٢١].

وثمّة معتقد يتجلى في فضاء المُقدس ورحابة يمكن أن نقرنه بالماء، يتمَّثل بالإفاضة نحو المزدلفة في موسم الحج قبل الإسلام ربمّا يُجسد رمزية العلاقة بين الشمس والماء، فالفعل افاضة مرتبط بالماء، ولا ننسىَ أنّ من عرفة إلى مِنى تنحدر الأرض، فإذن الإفاضة من عرفة نحو المزدلفة هي مُحاكاة لجريان السيل المتمنّى بعد مطلب المطر من الشمس، وهو دعاء صامت يفضي إلى أنّ دعوتهم قد استجابت، وهُمّ بهذا يُحاكون الطبيعة في إجبار الشمس على تلبية دعوتهم السحرية. أو لعلهم يتوخون من الإفاضة لِمّا لها علاقة بظاهر الماء ، بالاتجاه إلى جبل قُزح الذي يُمثل إله الرعد والمطر[١٢٢]. فإذن يُمكن الاستدلال من ممارستهم الطقسية بالإفاضة بوعي أو عن غير وعي على أنّه أحد طقوس الاستسقاء عند العرب قبل الإسلام.

ومن معتقدات العرب في مثيو الاستمطار التي اقترنت بالمُقدّس، أنّه إذا أصاب المطر باب الكعبة الذي من شِقّ العراق كان الخِصب في تلك السنة بالعراق، وإذا أصاب الذي في شِقّ الشامِ كان الخصب بالشام، وإذا عمّ جوانب البيت كان الخِصب عاماً في البلدان[١٢٣].

وكان لصلاة الاستسقاء جذورها الدينية التوحيدية، إذ عُرف الاستسقاء بالتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، ففي عهد سيدنا نوح (عليه السلام) أجهد قومه القحط والجدب؛ فدعا قومه إلى الاستغفار لله تعالى، لأنّه أن غُفر لهم ارسل الله عليهم السماء مدراراً[١٢٤]. وكذلك عُرف الاستمطار في عهد سيدنا ابراهيم (عليه السلام) ، إذ علم أبناءه اسماء متفرقة لله كانوا يستسقون بها [١٢٥] . وكذلك ما فعله سيدنا موسى (عليه السلام) حين استسقى لقومه بحسب ما جاء في قوله تعالى: " **وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**"[١٢٦]. وربَّما أنَّ فكرة الاستسقاء من الإله توارثها عرب قبل الإسلام ممّن سبقهم، ولكن اضافوا عليها طقوسهم الوثنية وتأثيرات المعتقدات الدينية المجاورة بالاستسقاء من آلهتهم، بدلالة أنَّ أحد بواعث جلب الأصنام من قِبل عمرو بن لُحي الخُزاعي من البلقاء في بلاد الشام كان الاستسقاء بها، وذلك حينما سألهم عنها فقالوا : إنَّها ارباب اتخذناها على شكل هياكل علوية واشخاص بشرية، ننصرها فتنصرنا، ونستسقى بها فتسقينا [١٢٧].

ومن معتقدات العرب في الاستمطار أيضاً ـ وعلى سبيل التبرك والتفاؤل ـ أنَّهم التجأوا عند استفحال أزمات الجدب ببلادهم إلى غسل ثيابهم، اعتقاداً منهم بأن استخدام الماء في هذه الحالة يُعدَّ وسيلة من وسائل جلب المطر ، كما جاء في قول أحد الشعراء :

قدْ قُلْتُ إذْ خَرَجُوا لِكَي يَسْتَمْطِرُوا لا تَقْنَطُوا واسْتَمطِرُوا بِثَيابِي [١٢٨]

ونبقى في معتقدات الاستمطار عند العرب وهذه المرّة في استعمالهم ما عُرف بحجر المطر الذي كان يضعونه بالماء، فيعتقدون أن الغيوم ستتجمع في السماء، ويبدأ المطر بالنزول إلى أن يرفع الحجر من الماء [١٢٩]. وقَدَمَ العرب النذور طلبا للمطر ، لِمّا لهُ من أهمية في جزيرة العرب ؛ لخشيتهم الجفاف ، فينذرون للصنم (مَناة) الذبائح ، والتي اسمها يعني مناءة مفعلة من النوء، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها[١٣٠]. وفي الغرض ذاته هناك صنم يقال له عُمْيَانُس بأرض خَوْلان ، كانوا يتوسلون (يتقربون) إليه بالذبائح أنْ يُمْطَرُوا [١٣١] .

وثمّة معتقدات ميثو دينية أخرى متعلقة بقدسية الماء ، ففي تدمر كان يقدمون القرابين وسيلة من وسائل الدعاء والتضرع، وكان العابد حين يُقدّم قربانه يتطلع إلى دليل ملموس ينّم عن إجابة دعائه، فيأتي إلى العيون المقدسة ، ويرمي قربانه فيها، فإذا غاص في الأعماق حاز القبول،

أمّا إذ لم يحظ بالقبول، فكان يطفوا على السطح، وعندما طفت القرابين المُقدمة من قبل مدينة تدمر في أحد اعيادها السنوية بعد عام من إلقائها في الماء، عُدّ ذلك نذيراً بقرب سقوط المدينة، ويتبيّن من هذا المعتقد أن البئر المقدس كان يتحول إلى مهبط للوحي والكهانة، تُعلن فيه ميول القوة الإلهية سواء بالسلب أو بالإيجاب(١٣٢).

وعرف العرب الماء مطهراً رمزياً من النجاسة، فكانوا يغتسلون من الجنابة(١٣٣)، وعرف المعينيون الوضوء بحسب ما ورد في نقوشهم بالجذر (وضأ) الذي ورد في النقش المرموز (JS 30M) لكن من غير الواضح ممارسته، ويبدو في هذا النقش رمزياً أكثر منه مادياً إذ إنّه يشير إلى التوضؤ من الشرّ والعهرّ والإيغال في إيذاء آلهة معين والرجاء في ثوابهم الجزيل ، أيّ أنّ الكلمة تتفق مع الطهارة (١٣٤). وعثر المنقبون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية ، يظهر أنّها كانت للوضوء، لتطهير الجسم قبل الدخول إلى المعبد، موضع الصنم، وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربّما الأبدان، قبل الدخول إلى بيت الصنم. ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم، عرفت (الميضأة) بالمطهرة، لأنّها تطهر من الأدران، ولهذا السبب، حفرت الآبار في المعابد ، لتموين هذه الأحواض بالماء، وللتبرك أيضاً بالماء المقدس(١٣٥). وهناك ما يشير إلى أنّ مُقدّمي النذور أو المعترفين بذنوبهم كانوا يتطهرون في أماكن خاصة في المعبد، ففي معبد الإله (ذو غابت) في مدينة ديدان، يوجد حوض ماء يغتسلون به أو يتوضؤون فيه قبل الدخول إلى المعبد(١٣٦).

وتضيف لنا الشواهد الآثارية أيضاً بما يُعضد طقس الطهارة بالماء، إذ عُثر في معبد الإله سن في سمهر (تقع على ساحل ظفار) في منتصفه تحديداً على بئر محدد حوافه بحجارة، وبجواره حوض (صهريج) للمياه، يبدو أنّه استعمل للتطهير عند ممارسة الطقوس الدينية في المعبد(١٣٧). ومن أمثلة المعابد التي عُثر فيها على قنوات للمياه : معبد المقه (أوام) في مأرب، ومعبد عثتر في تمنع (قناة من الحجر الجيري)، وعُثر فيه أيضاً على حوض (صهريج) مستطيل، كذلك عُثر على حوض مغطًّى ضخم في معبد ذات بعدان(شمس) في حجَّة، وفي (قرية) الفاو– عاصمة مملكة كندة– عُثر على قناة تُغذي معبد سن / شمس بالمياه من البئر الواقعة في السوق(١٣٨). ومن المعابد التي حفر بها آبار لتأمين المياه إليها معبد رصف أنبي في تمنع الذي يبدو أنه كان فيه رأس بئر ، وفي شمال الجزيرة معبد اللآت في وادي رم(١٣٩). ولهذا المعتقد الرمزي للماء في الطهارة وابعاد الشر له متماثلاته

عند العراقيين القدماء، إذ يرون الماء مُطهر من الأرواح الخبيثة ، بدلالة ما ورد في تعويذة شعرية بين الإله مردوخ ووالده إيا ما نصه:

هيا يا بني يا مردوك

خذ طاساً

واملأه من مصب النهرين

واقرأ على هذا الماء تعويذتك المطهرة

وبتعويذتك المطهرة المقدسة طهر

الشخص ابن إلهه ورش عليه بهذا الماء

(وامسح به جبينه.....) وأعصب رأسه [١٤٠].

وتُعدُّ المياه المقدسة وسيلة من وسائل الشفاء من السقم وفي رواية وهب بن منبه ، التي هي صدى معتقد جاهلي في النظر إلى قُدّسية ماء زمزم أنّه قال : والذي نفسي بيده، إنّها لفي كتاب الله مضنونة ، وإنها لفي كتاب الله برة، وإنها لفي كتاب الله شراب الأبرار ، وإنّها لفي كتاب الله طعام طعم وشفاء سقم . وفي روايةٍ عن ابن خثيم قال : قَدَمَ علينا وهب بن منبه مكة فاشتكى ، فجئناه نعوده ، فإذا عنده من ماء زمزم . قال : فقلنا له . لو استعذبت، فإنّ هذا الماء فيه غلظ ؟ قال : ما أريد أن أشرب حتى أخرج منها غيره، والذي نفس وهب بيده ، إنّها لفي كتاب الله زمزم لا تنزف ولا تذم ، وإنّها لفي كتاب الله برة شراب الأبرار، وإنّها لفي كتاب الله مضنونة، وإنّها لفي كتاب الله طعام من طعم وشفاء من سقم ، والذي نفس وهب بيده لا يعمد أحد إليها فيشرب منها حتى يتضلع إلا نزعت منه داء أو أحدثت له شفاء[١٤١] .

وتتجلى قُدّسية المياه في معتقدات العرب ما بعد الموت ؛ لأنَّ الماء مبعث الحياة ومنتهاها، فمن مُعتقداتهم دعائهم للموتى بسقيا القبر، وهو طقس رمزي لارتباط الماء بالخصب وبعث الحياة، فالسقيا تعني المطر الغزير الذي يروي الأرض اليابسة، فيخضر الكلأ، ويديم الحياة، وهو يُمّثل آخر

الدعوات بالخير والبركة والغيث لقبر هذا المرثي العزيز[١٤٢]. وهو دعاء للميت بأن تسقى الآلهة قبره بالغوادي (السحاب)، وفسروه بأنّهم قوم يعانون من الجفاف، لذلك يؤكدون على أنّ المطر يسقي تربة الميت فهو أقدس له[١٤٣]، ولعل هذا الاعتقاد نلمسه في شعر قيس بن الخطيم في رثاء (ربيعة بن مكدم) بقوله:

فَسقى الغوادي رَمْسَكَ ابنُ مكدَّمٍ من صَوبِ كل مُجلجلٍ وكّافِ[١٤٤]

أو دعاء الخنساء إلى أخيها صخر بسقيا قبره بقولها:

سقيا لقبرك من قبرٍ ولا برحت جود الرواعد تسقيه وتحتلب[١٤٥]

وتذهب الخنساء ابعد في شعرها عندما تربط السقيا ببركات الإله، وتضفي طابع العظمة على ضريح أخيها صخر بقولها:

سقَى الإلهُ ضَريحاً جَنَّ أعظُمَه وروحَهُ بغَزيرِ المُزنِ هطّالِ [١٤٦]

وبالغ العرب في اعتقادهم بسقيا القبر، فزعموا أنَّ الكهنة إذا ماتوا رأوا على قبورهم طشاً (مطر خفيفا)، وذلك ما قيل عن قبر الكاهن (الرباب بن البراء) [١٤٧]. كما امتد دعاء سقيا القبر ليشمل سقي أراضي شاسعة مجدبة محيطة بقبر الميت، وذلك ما نتأمله في رثاء متمم بن نويرة لأخيه مالك يقول:

سقى الله أرضاً حلها قبر مالك ذهاب الغوادي المدجنات فامرعا[١٤٨]

وربّما أنَّ سقيا القبر امتداد لاعتقادات شائعة في حضارة وادي الرافدين، فكان العراقيون القدماء يسكبون الماء لأرواح موتاهم لإرواء عطشها[١٤٩].وتُعدُّ المياه من أهم القرابين التي تقدم إلى الآلهة، إذ عمد (أوتونابشتم) إلى سكب الماء على الجبل في أثناء تقديمه القرابين إلى الآلهة:

"وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل

ونصبت سبعة وسبعة قدور

وكومت تحتها القصب والأرز والاسل

فشم الآلهة الرائحة آجل

لقد شم الآلهة الرائحة الطيبة"[١٥٠].

أو إنّها بقايا تراث ديني قديم كان أصلا طقساً سحرياً يمارس على عظام الموتى، والتي استخدمها العرب من استدعاء المطر، ومن ثُمّ ارتبط نزول المطر بالأرض الخراب والقبور الموحشة[١٥١]. والملحوظ في عادة سقيا القبر أنَّ هنالك تشابهاً بالاعتقاد مع المصريين القدماء والفينيقيين والرومان، كان أولئك القوم يجمعون الدموع التي تذرف من أعين النائحين في أوقات التعزية وتحفظ في قارورة تدعى (زق الدموع) وتسكب على أضرحة الموتى لتكون شاهداً على حزن الأحياء على الميت، ومحبتهم له وشعورهم بفداحة الخسارة لفقده[١٥٢].

ومن الشعائر التي ارتبطت بسقيا القبر شعيرة صب الخمر عليه، لا سيّما إذ اسلمنا بالمُعتقد السائد عن الخمر قبل الإسلام أنها شراباً مُقدّساً، ويمكن مُلاحظة ذلك بما أوصى به حاتم الطائي امرأته بأن تصب الخمر على قبره بعد مماته بقوله:

اماويَّ إما متُّ فاسْعَيْ بنُطْفَةٍ من الخَمر، رياً، فانضحِنّ بها قبرِي[١٥٣]

ومما عرف عن سيرة حاتم الطائي المعطاءة في الكرم وإقراء الضيف، فلا يستبعد أن يكون صب الخمر على القبر من باب العرفان بالجميل لما يفعله في حياته، والتأكيد أنّه كريم معطاء، لا سيّما كانت (الخمر في وعي الجاهلية باعث للكرم) [١٥٤]. ومثل هذا الاعتقاد كان يفعله ندماء الشاعر الأعشى الكبير الذين كانوا يجتمعون إليه في منزله فيأكلون ويشربون ويصبون الخمر على قبره على نحو ما جاء في رواية سليمان النوفلي عن أبيه، أنّه زار قرية منفوحة (قرية الأعشى) وسأل عن قبره فقالوا بفناء بيته، فانتهى إلى قبره فإذا هو رطب فسأل ما لي أراه رطباً، فقالوا: إنَّ الفتيان ينادمونه فيجعلون قبره مجلس رجل منهم فإذا صار إليه القدح صبوه على قبره[١٥٥].

وفي سياق دلالة المياه بأنّه مبعث الحياة ومنتهاها والذي يُجسد ميثيو قدسية المياه ما حملته بعض معتقدات العرب فيمّا بعد الموت من طقوس رمزية ومنها الثأر لتهدئة صداه ، والمعروف عند العرب أنَّ الثأر يحمل صفة دينية مُقدّسة تتخذ طابع الأحرام والنذر لحين ما يتم الأخذ بالثأر فيكون

الموتور في حل من إحرامه ، لذا صوّروا الثأر بالطائر الأسطوري الذي يصرخ اسقوني .. اسقوني لحين ما يرتوي من عطشه بعد الأخذ بالثأر . وهذا ما ضمنته الروايات الإخبارية باعتقادهم بالهامة (يقولون: إذا قتل قتيل خرجت من رأسه هامة) [١٥٦]، فإذا لم يؤخذ بثأره نادت الهامة على قبره اسقوني فإنَّي صدية (عطشى)[١٥٧]، وليس أدل على ذلك من وصية أحد الشعراء الآتية:

ولا تزقون لي هامة فوق مرقب فإنَّ زقاء الهام للمرء عائب

تنادي ألا اسقوني وكل صدى به وتلك التي تبيض منها الذوائب[١٥٨]

ومن هذين البيتين يستشف ابن أبي الحديد إنَّ الشاعر يوصي ابنه بأنَّ لا يترك ثأري أن قتلت، فإنَّك إن تركته صاحت هامتي: اسقوني فإنَّ كل صدى . هو العطش . بأبيك، وهو أمر صعب، وهو مقبور إذا لم يثأر به، وأنّ صعوبة الأمر عليه يعني إن ذلك عار عليك[١٥٩].

وفي هذا سياق . أيّ موضوع الهامة ، يرى أحد الباحثين [١٦٠] ، بمّا أنَّ الماء هو أصل الحياة ومنتهاها، فلابد للروح في النهاية من العودة إلى أصلها المائي، وبغير الماء تبقى صديّة عطشى، تبحث عنه لترتوي منه، لذا اتخذ الموت صورة الماء، وتجلّت هذه الصورة عند العرب في تحول روح الميت إلى هامة أو صدى، وهما مصطلحان يدلان على شدة العطش ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالماء في صراخهما دائماً : اسقوني، اسقوني.

الخاتمة

تطرق البحث الموسوم بعنوان (تقديس المياه عند العرب قبل الإسلام) إلى جذور هذا التقديس في حضارات الشرق القديم، واخترنا منها : (بلاد الرافدين، وبلاد النيل، وسوريا القديمة، وإيران القديمة) أنموذجاً لهذا التجذير، واتضح أنّه ثمّة متماثلات في معتقدات تقديس المياه عند هذه الحضارات والعرب قبل الإسلام.

وعُنيّ البحث في تقديم الشواهد التاريخية والاركولوجية بما يُعضد فكرة قدسية المياه، منها: إنّ هناك آلهة خصّها العرب دون غيرها نُصّبت بكونها مسؤولة عن وفرة المياه، وتنصيب عدد من هذه الآلهة عند موارد المياه بمّا أوحى إلى أنّ القوة الإلهية كامنة في هذه المياه.

وتطرق البحث إلى ما نُسجت من روايات أسطورية مشحونة بمثيو المقدس سواء ما يتعلق بحفر الآبار أم ما يتعلق باقترانها بأجداد مُقدّسين ممّا أضفى القداسة عليها. وفصّل البحث في المعتقدات التي اقترنت بالمياه، وارتقت به إلى المُقدّس، وكان من أهمها طقوس الاستسقاء بالاستعانة بالآلهة طلباً للمطر في مواسم شحته. وقَدَّم البحث شواهد بما يؤكد فكرة طقس طهارة الماء، إذ عُدّ مطهراً رمزياً من النجاسة، فضلاً عن عدّه وسيلة من وسائل الاستشفاء.

وما أضفى على الماء قُدّسية أكثر كونه أصل مبتدأ الكون، فالمياه الأولى هي أصل الخلق، ومثلما هي الأصل فهي منتهاه أيضاً، إذ له حضور طقسي في معتقدات العرب ما بعد الموت.

الهوامش والمصادر:

(١) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، ترجمة : وليد الجادر ، (بغداد ،١٩٧١) .ص٥١.

(٢) ليو اوبنهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبدالرزاق، ط٢، وزارة الثقافة، (بغداد، ٢٠١٣)، ص٢٣٦.

(٣) ينظر تفصيلات أكثر: شيماء صلاح أحمد الجنابي، الإله إنكي في حضارة بلاد الرافدين في ضوء النصوص المسمارية، رسالة ماجستير، جامعة بغداد ، كلية الآداب، ٢٠٠٧، ص ٤.

(٤) محمود الأمين ، بشير فرنسيس ، شعار سومر، ص١٥– ص ١٦.

(٥) ينظر:عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي (بغداد ،١٩٨١) ، ص٢٢٤.

(6) Black. George.and Green, ., God Demons and Symbols of Ancient Mesopotamia, (London, 1998). p,107.

(٧) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، ص٥٤ ؛ هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة عامر سليمان، الموصل، ١٩٧٩، ص٣٨٩.

(٨) محمود الأمين، بشير فرنسيس، شعار سومر رمز الحياة الخالدة والحكمة والعرفان، دار الوراق، بغداد، ٢٠٠٧،ص٣٨.

(٩)حسين عليوي عبد الحسين السعدي، وظائف الآلهة في بلاد الرافدين، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١٥، ص ١٦٦.

(١٠) سامي سعيد الأحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم ، (بغداد ، ١٩٨٨) ، ص١١.

(١١) حسن نعمة، مثيولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، موسوعة الاديان السماوية و الوضعية، المجلد الاول، بيروت،١٩٩٤ ص ص٢٧٧–٢٧٩.

(١٢) صموئيل نوح كريمر، من الواح سومر، ترجمة طه باقر، بغداد، ١٩٥٧، ص١٩٣.

(١٣) عبدالمالك يونس عبد الرحمن، عبادة الإله شمش في حضارة وادي الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة ، (جامعة بغداد ، ١٩٧٥) ص ص٧٦–٧٧.

(١٤) حسين عليوي عبد الحسين السعدي، وظائف الآلهة في بلاد الرافدين، ص ١١٧.

(١٥) روبرت آرمور، آلهة مصر القديمة وأساطيرها، ترجمة مروة الفقى، القاهرة ٢٠٠٥، ص١٣١– ص١٣٢.

(١٦) أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورّها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص٣٣.

(١٧) فرانس ديماس ، آلهة مصر، ترجمة زكي السوس، القاهرة، ١٩٩٨، ص٦٥.

(١٨) ينظر: أحمد علي الطيب الزرعي، المعبودات الكونية في كل من مصر واليمن القديمة دراسة مقارنة، اطروحة دكتوراه، جامعة أسيوط، كلية الآداب، ٢٠٠٩، ص٥٠٠.

(١٩) د.اذ زاد، م.هـ. بوب،ف رولينغ، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين(السمرية والبابلية) وفي الحضارة السورية(الأوغاريتية والفينيقية)، ترجمة محمد وحيد خياط، حلب، د.ت، ص ١٥٧.

(٢٠) خزعل الماجدي، المعتقدات الكنعانية ، دار الشروق ، عمان، ٢٠٠١، ص٦٩، ص٥٣.

(٢١) آتوسا احمدي ،علل برجسته شدن ايزاد اناهيتا در زمان اردشير دوم هخامنشى (٤٠٥/ ٣٥٩ ق.م)،ص٤٠.

(٢٢) شهميزادي، إيران دربيش از تاريخ، ص٩٧.

(٢٣) ينظر: خليل عبد الرحمن ، أفِستا، روافد للثقافة والفنون، ط٢، دمشق، ٢٠٠٨م ، ياشت٥.

(٢٤) هوش شاهووردى، اسطور هاى ايران زمين، خانه تاريخ وتصوير ابريشمى،٢٠١٥م، ص٥٠.

(٢٥) ينظر: سوزان گويرى، اناهيتا در اسطوره هاى ايرانى، انتشارات ققنوس، (تهران، ١٣٩٣)، ص٣٦.

(٢٦) كُرس الياشت الثامن من كتاب أفستا لنجمة تيشتريا التي تتطابق مع سيروس(الشعري اليماني) النجمة المُشعة في مجموعة نجوم الكلب الأكبر، تدير تيشتريا الأمطار وبشكل عام المياه، وتدخل في صراع اسطوري مع شيطان الجفاف أباوشا (قاطع المياه) ، خليل عبد الرحمن ، أفِستا، مقدمة ياشت ٨، ص ٤٣٩.

(٢٧) مهوش شاهووردي، اسطور هاي ايران زمين، خانه تاريخ وتصوير ابريشمى،٢٠١٥م، ص٤٩.

(٢٨) طلب القسم والحكم من الأزلام ، أي معرفة ما قدر لهم في جميع أمورهم عن طريق ضرب القداح ، ينظر : فخر الدين محمد الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، (بيروت،٢٠٠م)، ج١١، ص ١٣٦ ؛ مجد الدين أبو الفيض الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس ، تحقيق مجموعة من المحققين ، دار الهداية (بيروت ، د.ت) ، ج١٧، ص٥٧٤ ، والأزلام جمع زلم ، وهي القِداح ، ينظر: أبو السعادات ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)،النهاية في غريب الحديث والأثر، خرج أحاديثه أبو عبد الرحمة بن محمد بن عويطة، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م)، ج٢، ص٣١١.

(٢٩) القِداح جمع قِدح ، بكسر الدال ، السهم الذي كانوا يستقسمون به ، ينظر : بدر الدين محمود بن احمد العيني (ت٨٥٥هـ) ، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري (دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ج١٨، ص٢٠٨. أو هي حصى بيض ، أو حجارة، مكتوب عليها، ينظر: شهاب الدين ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، فتح الباري على صحيح البخاري، ط ٢، (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت) ، ج٨، ص ٢٠٧.

(٣٠) أبو الوليد محمد الأزرقي (ت٢٢٣هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح ملحسن، دار الأندلس للنشر، (بيروت، ١٩٩٦م)،ج١، ص ١١٧– ص ١١٨.

[٣١] نقلا عن: محمد عبد المعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة ، بيروت، ١٩٨١م، ط٣، ص١٢٣- ص١٢٤.

[٣٢] جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (دار العلم للملاين، بيروت، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٧٢ م). ، ج٦، ص٢٣٢.

[٣٣] محمد عجينة ، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ، ط٢، دار الفارابي للنشر، (بيروت، ٢٠٠٥م) ، ص١٩٦.

[٣٤] محمد عبد المعيد خان ، الأساطير والخرافات عند العرب ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨١،ص ١٢٦.

[٣٥] ينظر : محمود محمد الروسان ، القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة، مطابع جامعة الملك سعود،١٤١٢هـ، ط٢، ص١٦٢- ص١٦٣.

[٣٦] جواد علي ، المفصل ، ج٦، ص ٣٣٢.

[٣٧] الروسان ، القبائل الثمودية والصفوية ، ص١٢٦ .

[٣٨] الانصاري ، عبد الرحمن الطيب ، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام ، (الرياض:١٩٨٢م)، ص٢٦ .

[٣٩] جواد علي ، مقومات الدولة العربية قبل الإسلام ، أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام، المركز الاكاديمي للأبحاث ، منشورات الجمل ، (بغداد ، ٢٠١١م) ، ص ٤٠١ .

[٤٠] جورج كندر، معجم آلهة العرب قبل الإسلام، دار الساقي،بيروت، ٢٠١٣، ص ٢٢٢.

[٤١] كندر ، معجم ، ص ٢٢٣ . ص ٢٢٤.

[٤٢] ماجد عبد الله الشمس ، الحضر العاصمة العربية ، مطبعة التعليم العالي ،(بغداد ١٩٨٨م)، ص١٠٦ .

[٤٣] رنيه ديسو ، العرب في سوريا، ترجمة عبد الحميد الدوخلي، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ١٤٤.

[٤٤] علي صقر أحمد ، النقوش التدمرية القديمة ، ج١ ، النقوش النذرية ، الهيئة العامة للكتاب (دمشق ، ٢٠٠٩).ص ١٤٨- ص ١٤٩.

[٤٥] السيد يعقوب بكر ، محاضرات في ديانة الساميين لمؤلفه روبتسن سمث ، ترجمة عبد الوهاب علوب، مطابع الاهرام، (مصر، ١٩٩٧م)، هوامش الفصل السابع ، ص ٣٦٦.

[٤٦] منذر عبد الكريم البكر، معجم أسماء الآلهة والأصنام لدى العرب قبل الإسلام ،مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة ، ١٩٩٨م ،عدد ٤ ، ص ٤٩.

[٤٧] حواء ميلاد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة تدمر(١٠٦- ٢٧٣م)، رسالة ماجستيرغير منشورة، جامعة المرقب، ملية الآداب والعلوم، ٢٠٠٧م، ص ٨٩- ص ٩٠.

[٤٨] هتون اجود الفاسي ، الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة من منتصف القرن السادس ق.م وحتى القرن الثاني الميلادي ، (الرياض ، ١٩٩٣م)، ص ٢١٤.

[٤٩] هتون اجود الفاسي ، الحياة الاجتماعية ، ص٢٢٤.

[٥٠] السيد يعقوب بكر ، هوامش كتاب الحضارات السامية ، لمؤلفه موسكاتي ،ص٣٦٤.

[٥١] كريم عزيز حسن ، المعابد الصغيرة الخاصة في مدينة الحضر دراسة في عمارتها وتخطيطها واثارها، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤ص٥٤.

[٥٢] المصدر نفسه ، ص ٥٦.

[٥٣] واثق إسماعيل الصالحي، بعلشمين- إله البرق والمطر في الحضر، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الخامس والعشرون ، ١٩٧٩م ص ٤٥١.

[٥٤] فؤاد محمد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس ، بغداد، ١٩٧٤، ص ٤٢.

[٥٥] الصالحي ، بعلشمين ، ص ٤٥١.

[٥٦] آدوم : مملكة ظهرت شرق الأردن بحسب النصوص الآشورية حوالي القرن الثامن قبل الميلاد ، جاءت نهيتها على يد الملك الكلدي نبونائيد ، إذ قام بتدميرها وقتل ملكها في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، ينظر : ميثم علي عبد الحسين الصرخي ، ممالك شرق الأردن بين نصوص العهد القديم والمعطيات التاريخية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة واسط ، ٢٠١٤م ، ص ١٦٩.

[٥٧] فان زايل، المؤآبيون، ترجمة خيري ياسين، (عمان،١٩٩٠م)، ص ٧٥ – ص ٧٦.

[٥٨] كندر، معجم، ص ١٩٦.

[٥٩] هشام جعيط ، في السيرة النبوية، تاريخ الدعوة المحمدية في مكة،ج٢، دار الطليعة ، بيروت،٢٠٠٧، ص ١١٠.

[٦٠] جواد علي، المفصل، ج٦، ص ٣٠٨.

[٦١] كندر، معجم ، ص ٢٣٣.

[٦٢] كندر، معجم، ص ٢٤٩.

[٦٣] سمث، محاضرات، ص١٨٥.

[٦٤] أبو الحسين المسعودي(ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، انتشارات الشريف الرضي، ١٤٢٢هـ،ج١، ص ٣١.

[٦٥] تقي الدباغ ، الفكر الديني القديم، ص ١٦.

[٦٦] عبدالرحمن يونس عبدالرحمن الخطيب، المياه في حضارة بلاد الرافدين، اطروحة دكتوراه منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠١٠، ص١٧٠.

[٦٧] عادل جاسم البياتي، الرافدان وأثرهما في أدب المياه وقصص الطوفان، مجلة آداب المستنصرية، العدد الثامن ١٩٨٤، بغداد، ص١٤٥.

[٦٨] محمد عبد المعيد خان ، الأساطير والخرافات عند العرب ، ص١٢٥.

[٦٩] محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص١٩٧.

[٧٠] ينظر: هشام أبو المنذر ابن الكلبي (ت٢٠٤هـ) الأصنام ، تحقيق احمد زكي (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب لسنة ١٩٢٤م، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة) ص ٩، ص٢٩.

[٧١] ينظر: محمد عجينة ، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص٢٥٨– ص ٢٥٩.

[٧٢] جعيط، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢٢٨.

[٧٣] هتون أجود الفاسي، الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة من منتصف القرن السادس ق.م وحتى القرن الثاني الميلادي ، (الرياض ، ١٩٩٣م)، ص ٢٣٦.

[٧٤] محمد سلطان العتيبي، المعبد قبل الإسلام، في شبه الجزيرة العربية–العراق٠ – بلاد الشام– مصر، دار الوراق، ٢٠١٤ص ١٨١.

[٧٥] ينظر: أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) ، الأغاني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، لبنان ، تحقيق : علي مهنا وسمير جابر،ج١٤،ص ١٣، ج١٩،ص ٢٠.

[٧٦] م.ج. كستر، الحيرة ومكَّة وصلتهما بالقبائل العربية، ترجمة يحيى الجبوري، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦، ص ٦٣.

[٧٧] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (ت٢٥٠هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، تحقيق : رشدي الصالح ملحس ، دار الأندلس للنشر ، بيروت ،١٩٩٦م ، ج١، ص٢٤٤– ص ٢٤٥.

[٧٨] إحسان الديك، البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي، دراسات ، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٣٦، (ملحق)، ٢٠٠٩، ص٣٦.

[٧٩] سمث، محاضرات في ديانة الساميين، ص ١٨٠.

[٨٠]أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ) ، تاريخ الطبري ، دار الكتب العلمية (بيروت)، ج١، ص٤٩٨ ؛ الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر (بيروت – ١٤٠٥هـ)، ج٢٣، ص٨٥.

[٨١]عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، ت ٢١٣هـ ، السيرة النبوية، دار الجيل – بيروت – ١٤١١هـ ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد، ج١، ص٢٧٧ ، وينظر : الازرقي ، أخبار مكة ، ج٢، ص ٤٦ ؛ الفاكهي ، أخبار مكة ، ج٢، ص١٤– ص١٦.

[٨٢] محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي،بيروت،١٩٩٤، ص٢٥٧.

[٨٣] موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص٢٥٧.

[٨٤] ينظر: فاضل الربيعي، غزال الكعبة النظام القرابي في الإسلام، جداول،بيروت، ٢٠١١م ص٢٣٨– ص ٢٣٩.

[٨٥] ابن هشام ، السيرة النبوية، ، ج ١ ص ٢٧٩.

[٨٦] ينظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٤٤، ص ٤٨.

[٨٧] طه باقر، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان، دار الرشيد، ١٩٨٠، ص ١٠٥.

[٨٨] ينظر: محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري ت ٢٣٠هـ ، الطبقات الكبرى ، دار صادر، بيروت، ص٨٧ ؛ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) ، تاريخ اليعقوبي، دار صادر – بيروت، ج١ ، ص ٢٤٨.

[٨٩] فاضل الربيعي، غزال الكعبة، ص ٢٤٤.

[٩٠] هناك أكثر من رأي في التسمية ويرى ابن سائب الكلبي إذ مزقهم الله ما جاء في قوله تعإلى : ((وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)) ينظر : سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي (لا يعرف سنة وفاته) ، الأنساب ، مطابع دار الجريدة عُمان، (سلطنة عُمان، ١٩٨٤ م) ،ج٢، ص ٥٣.

[٩١] ينظر : اليعقوبي ، تاريخ ، ج١، ص ٢٠٣ ؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ، ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون، ط ٥ ، دار القلم ، (بيروت ، ١٩٨٥م)، مجلد ٢ ، ص٥٣٣.

[٩٢] ينظر : الازرقي ، أخبار مكة ، ١ج، ص٩٢ ؛ أبو الفضل أحمد الميداني (ت٥١٦هـ) ، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (دار المعرفة ، بيروت) ،ج١، ص ٢٧٦ .

[٩٣] السلع : نبات ينبت بقرب الشجرة ثم يتعلق فيها حبالاً خُضراً لا ورق له ولكن قضبان تلتف على الغصون وتشتبك وله ثمر مثل عناقيد العِنب صغار فإذا أينع اسود فتأكله القرود ولا يأكله الإنسان ، ينظر : مجد الدين أبو الفيض الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس شرح القاموس المسمى من جواهر القاموس ،تحقيق: مجموعة من المحققين دار الهداية (بيروت، لبنان)،ج٢١، ص٢١٤.

[٩٤] أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) ، الأزمنة والأمكنة ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، (حيد ر آباد الدكن، ١٣٣٢ هـ) ،ج٢،ص١٢٣ ؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم ابن منظور (ت٧١١هـ) ، لسان العرب، دار صادر، (بيروت ، د، ت) ، ج٨، ص١٦١؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي(ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان، دار الفكر (بيروت د.ت)، ج٣،ص٢٣٧؛ أبو العباس احمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق يوسف علي الطويل (دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م)،ج١، ص٤٦٦.

[٩٥] المرزوقي ،المصدر نفسه والصفحة .

[٩٦]أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري الثعالبي (ت٤٢٩هـ) ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطباعة ، (مصر – ١٩٦٥م)، ج١، ص٥٨٠؛ وينسب ابن طباطبا هذا الشعر إلى أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت ، ينظر : أبو الحسن محمد بن احمد العلوي ابن طباطبا(ت ٣٢٢هـ)عيار الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع (مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت)،ج١، ص٦٠.

[٩٧] أحمد إسماعيل النعيمي ، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٥ م)، ص ١٩٥.

[٩٨] أنور عليان أبو سويلم ، المطر في الشعر الجاهلي ،ط٧، (دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م)، ص ١٦٠.

[٩٩] قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب (الموصل ، ١٩٨١م) ، ص ١٩٢.

[١٠٠] مصطفى عبد الشافى الشورى ، صورة الثور الوحشي الرمزية ودلالاتها في الشعر الجاهلي ، حوليات كلية الآداب ، مج ٢١، ١٩٩٣-١٩٩٤، ص ٢١.

[١٠١] عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، دار الرشيد للنشر، (بغداد، ١٩٨٠م)، ص١٠٧.

[١٠٢] ينظر: سمث، محاضرات في ديانة الساميين، ص ٢٤٨.

[١٠٣] منير عبد الجليل العريقي ، الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم من ١٥٠٠ق.م حتى ٦٠٠ميلادية ، مطبعة مدبولي ، ٢٠٠٢م ، ص ١٠٥.

[١٠٤] جواد علي ، مصطلحات الزراعة والري في كتابات المسند ، أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام ، المركز الاكاديمي للأبحاث ، منشورات الجمل ، (بغداد ، ٢٠١١م)، ص ٣٣١ .

[١٠٥] جواد علي ، المدونات العربية لما قبل الإسلام ، أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام ، المركز الاكاديمي للأبحاث ، منشورات الجمل ، (بغداد ، ٢٠١١م)،ص ٢٣٩ .

[١٠٦] جواد علي ، المدونات العربية لما قبل الإسلام ، ص ٢٤٠ .

[١٠٧] محمد عبد القادر بافقيه وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة ، (تونس ،١٩٨٥م)، ص ١٥٤.

[١٠٨] جمال محمد ناصر عوض الحسيني، الإله سين في ديانة حضرموت القديمة ، دراسة من خلال النقوش والآثار، رسالة ماجستير ،كلية الآداب ، جامعة عدن، ٢٠٠٦م ، ص ١٢٧، ص ١٣٠.

[١٠٩]أسمهان سعيد الجرو ، الديانة عند قدماء اليمنيين ، دراسات يمنية ، صنعاء،ع٤٨، ١٩٩٢م ، ص ٣٥٥.

[١١٠] أسمهان سعيد الجرو ، الفكر الديني عند عرب جنوب شبه الجزيرة العربية ، مجلة جامعة اليرموك ، سلسلة العلوم الاجتماعية، مج ١٤، ع١، ١٩٩٨م، ص ٢٣٨.

[١١١] جواد علي ، مقومات الدولة العربية قبل الإسلام ، ص٤٠١.

[١١٢] أسمهان سعيد الجرو ، الديانة عند قدماء اليمنيين ، ص٣٥٦.

[١١٣] يوسف محمد عبد الله ، نقش القصيدة الحميرية أو ترنيمة الشمس ، صورة من الأدب الديني في اليمن القديم مجلة ريدان ، ع٥، صنعاء ، ١٩٨٨م ، ص ٩٥- ص٩٩.

[١١٤] يوسف محمد عبد الله ، نقش القصيدة الحميرية أو ترنيمة الشمس (صورة من الأدب الديني في اليمن القديم) ريدان ، ع ٥ ، عدن ، ١٩٨٨م ، ص٩٥- ص ٩٩.

(١١٥) فوزي رشيد، "علم الفلك بدايته وإنجازاته"، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٥،(بغداد، ١٩٩٧)،ص٢٠٧- ص٢٠٨ .

(١١٦)أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، الأنواء في مواسم العرب ، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد- ١٩٩٨م) ، ص١٨ .

(١١٧) المصدر نفسه ، ص ١٠ – ص١١ .

(١١٨) كامل طه الويس، "الرقص في العراق القديم"، مجلة التربية الرياضية، مج١٠، ع ١، ٢٠١٠، ص٣٨.

(١١٩) محمد الحاج سالم ، من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى ، (دار المدى الإسلامي، بيروت)، ص٣٩٦.

(١٢٠) محمد بن حبيب (ت ٨٥٩هـ) ، المنمق في أخبار قُريش ، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب(بيروت ، ١٩٨٥م) ، ص ١٤٦- ص ١٤٧.

(١٢١) أحمد الربيعي ، قس بن ساعدة الايادي ، حياته ،وخطبه ، شعره ،مطبعة النعمان، (النجف، ١٩٧٤م)، ص ٤٠- ص ٤١.

(١٢٢) ينظر: هشام جعيط ، في السيرة النبوية، ج٢، ص ١٠٨.

(١٢٣) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٢٣.

(١٢٤) زين الدين ابن نجيم ، البحر الرائق لشرح كنز الدقائق، (بيروت – د.ت)، ج٢،ص١٨١

(١٢٥) فؤاد افرام البستاني ، دائرة المعارف ، ج١ ، (بيروت – ١٩٧٤) ، ص٤٨٧ .

(١٢٦) سورة البقرة ، اية : ٦٠ .

(١٢٧) الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق : محمد بن فتح الله بدران ، المطبعة الازهرية ، القسم الثاني ، د.م ، د.ت ، ص٤٦١ .

(١٢٨) عبد الحميد سلامة ، قضايا الماء عند العرب قديماً من الجاهلية / القرن٦م إلى القرن ١١هـ / ١٧م، دار الغرب الإسلامي ، (بيروت،٢٠٠٤م) ، ص ٧٨.

(١٢٩) مجهول ، عجائب البلدان والجبال والأحجار، مخطوطة محفوظة في دار صدام للمخطوطات تحت الرقم ٣٩٨٣٧، ورقة ٢٧٢ .

(١٣٠) أبو القاسم محمود الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، تحقيق عبد ارزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، د.ت) ، ج٤، ص٤٢٤ .

(١٣١) ابن الكلبي ، الأصنام ، ص٤٣.

(١٣٢) روبتسن سميث، محاضرات في ديانة الساميين، ص ١٨١.

(١٣٣) ابن حبيب، المحبر، ص ٣١٩.

[١٣٤] هتون الفاسي، الحياة الاجتماعية، ص٢٧٢.

[١٣٥] جواد علي ، المفصل، ج٦، ص ٤٠٨.

[١٣٦] جواد مطر الموسوي، الميثولوجيا والمعتقدات الدينية، دار رند، دمشق، ٢٠١٠، ص٢٤٣.

[١٣٧] محمد سلطان العتيبي، المعبد قبل الإسلام، في شبه الجزيرة العربية–العراق٠ – بلاد الشام– مصر، دار الوراق، ٢٠١٤، ص١٥– ص١٦.

[١٣٨] محمد سلطان العتيبي، المعبد قبل الإسلام، ص ١٨١– ص ١٨٢.

[١٣٩] المصدر نفسه، ص ١٨١.

[١٤٠] محمود الأمين ، بشير فرنسيس، شعار سومر، ص٥٢– ص ٥٣.

[١٤١] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، ٢٠٠٤م ، ج ١ ، ص ٢٩٤– ص ٢٩٥.

[١٤٢] بشرى محمد الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، (مديرية مطبعة الإدارة المحلية، بغداد، ١٩٧٧م)، ص٤١.

[١٤٣] أبو عبيدة معمر بن المثنى(ت ٢٠٩هـ) ، كتاب أيام العرب ، تحقيق عادل البياتي، مطبعة دار الجاحظ، (بغداد، ١٩٧٩)، ق١ ، ص١٤٨.

[١٤٤] أبو يزيد قيس بن الخطيم، ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر بيروت،ص ٢٣٧.

[١٤٥] تماضر بنت عمرو بن الحرث الخنساء(ت٦٦٤م)، ديوان الخنساء، شرحه حمد وطاسّ، دار المعرفة ، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٨.

[١٤٦] المصدر نفسه، ص٩٣.

[١٤٧] الرباب بن البراء : من أبناء عامر بن الديل بن شن بن افصى بن عبد القيس كان يتكهن ثم أصبح على الديانة المسيحية. ينظر: الأصفهاني، الأغاني ، ج١٦، ص ٣٦٣.

[١٤٨] المصدر نفسه والصفحة .

[١٤٩] ابتسام مرهون الصفار، مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي (مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٨٦م)، ص١١٢.

[١٥٠] فاضل عبدالواحد، الطوفان في المراجع المسمارية، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص ص٩٦–٩٨.

[١٥١] سامي سعيد الأحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، ص٨٣.

[١٥٢] أنور عليان أبو سويلم، المطر في الشعر الجاهلي، ص٨٥.

[١٥٣] مجمع الكنائس الشرقية، قاموس الكتاب المقدس، ص٣٧٧.

[١٥٤]حاتم الطائي بن عبد الله بن سعد الحشرج (نحو٥٧٥ م) ديوان حاتم الطائي، ط ٢، (دار صادر، بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٤٥.

[١٥٥] محمود الجادر، هاجس الخلود في الشعر العربي قبل الإسلام، مجلة آفاق عربية، العدد ١٠، سنة ١٩٨٦م.، ص ١٠١.

[١٥٦] ينظر : ابن الأثير، النهاية، ج٣، ص٣٩٣؛ شهاب الدين أبو الفضل العسقلاني ابن جر(ت٨٥٢هـ) ، فتح الباري على صحيح البخاري، ط ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر،(بيروت) ، ج١١، ص٤؛النووي شرح مسلم، ج٤، ص٤١.

[١٥٧] أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ج١، ص٦٥.

[١٥٨] عز الدين ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٧٨،ج١٩، ص٣٩١.

[١٥٩] المصدر نفسه، ص٣٩٢.

[١٦٠] المصدر نفسه، ص٣٩٢.